غداً.. تولد شمس أخرى

الناشر : **دار الرشاد**
١٤ شارع جواد حسنى - القاهرة
تليفون : ٣٩٣٤٦٠٥ - ٢٩٩٢٦١٥
رقم الإيداع : ١٠٤٩٠/ ٩٥
الترقيم الدولى : 3-20-5324-977
طبع : **آمون**
العنوان : ٤ عطفة فيروز - متفرع من إسماعيل أباظة
تليفون : ٣٥٤٤٣٥٦ - ٣٥٤٤٥١٧
التجهيزات الفنية أرمس للكمبيوتر والتجهيزات الفنية
٣٢ شارع على عبد اللطيف - مجلس الشعب لاظوغلى
ت : ٣٥٦٤٤٠٤
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة
الطبعة الأولى : ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م
خطوط الغلاف : **محمد حمام**
تصميم الغلاف : **محمد فايد**

غدًا تولد شمس أخرى

رواية

بقلم:

الدكتور حسين مؤنس

دار الرشاد

أهم شخصيات الرواية

الزوجة: نادية بدر الدين حسن كريمة الدكتور بدر الدين حسن.

الزوج: ماجد توفيق صادق ـ وكيل الوزارة المساعد بوزارة الاقتصاد.

الأولاد:

طارقـ طالب بكلية الطب ٢١ سنة.

سوزانـ طالبة بكلية الآداب قسم لغة إنجليزية ٢٠ سنة.

أحمد ـ طالب فى المرحلة الإعدادية.

الدكتور محمودـ شقيق ماجد طبيب أمراض نساء فوق سن الخمسين بقليل.

صديقة الزوجة: أمينة زهدى ـ مديرة مكتب السفير فى سفارة أجنبية.

صديقة ثانية للزوجة: زاهية إسماعيل على ـ متزوجة ولديها ٥ أولاد وتعمل سكرتيرة السفير فى سفارة أجنبية.

الطباخ: عم إمام فى السبعين من عمره.

صديق الابن طارق: سامح نور ـ يدرس الطب أيضاً.

والد الصديق: نور سلامة ـ مدير عام فى شركة قطاع عام.

أهم شخصيات الرواية

صديق ثان للابن طارق : عصام عاشور ـــ طالب طب ووالده يملك مكتب استيراد وتصدير .

مدير البيت الأمريكى : مستر ادواردز ـ ممثل السفارة فى إدارة البيت الأمريكى .

مدير الحسابات فى البيت الأمريكى : المستر زكى ـــ مدير الشئون الإدارية والمالية فى البيت الأمريكى .

خادمة غرفة الزوجة فى البيت الأمريكى : أنيسة ـ سيدة فى الأربعين من عمرها ولكنها لا تعتنى بمظهرها .

[١]

دون أن يوقظها جـرس أو منبه نهضت جالسة فى فـراشها ونظرت إلى المنبه إلى يمينها على المنضدة الصغيرة ، السـاعة الخامسة والنصف تماماً ، عجبـاً للإنسان : بـداخله ساعة تـوقظه فى الموعد الـذى تعوَّد أن يستيقظ فيه ، وأحياناً فى الموعد الذى يريد أن يستيقظ فيه .

كان نور الصبـاح قد أخذ يفيض على الكون ، إنها تـريد أن تنهض ولكن رأسها وجسمهـا كله لايـزال نائماً ، إنها بحاجـة إلى ساعـة نوم أخرى ، ربما نصف ساعة أو حتى ربـع ساعة ، ولكن لا بد أن تنهض ، هذا هو الواجب ، من اثنتين وعشرين سنة وهى تعيش للواجب .

وهـزَّت رأسهـا وهى جالسـة فى الفـراش كأنها تنفض النـوم ، لم تستطع أن تطرد النوم ،ولكنها حاولت ونـزلت من سريرها ، إنها تنام فى غرفة وحدهـا وإلى جانبها غرفة زوجها ، إنـه لا يزال يغُطُّ فى نومه ، إنها تنام فى غرفة وحدهـا لكيلا توقظه ، إنها تستيقظ فى الخامسة والنصف وهو فى الثامنة .

ونهضت واقفـة ، وسـوَّتْ عليهـا ثـوب النـوم الحريـرى . إنها فى الحاديةوالأربعين من عمـرها ، وهى حـريصة جـداً على جمالها . كانت تقول إن جمالها هو الشىء الوحيد الذى تعتبره ملكها فى هذا البيت ، ولا يجوز لأحد أن يتدخل فى شأنه . وهى أنيقـة لأن الله خلقها تحب الأناقة منسرحة القـامة ممتلئـة بعض الشىء . هذا حكم السنين ، ولكنـه حُكْمٌ جميل .

وأزاحت الستار فدخل ضوء الصباح الباكر . ثم فتحت باب البلكون فدخل هواء مُنْعش نقى ، وذهبت إلى المرآة وأضاءت نور الحجرة ونظرت إلى وجهها وابتسمت : لا زالت شابة أنيقة ومرت بأصابعها على حاجبيها وجانبى وجهها ، وعدلت أهدابها ، ثم سرَّحت شعرها ورضيت عن نفسها ، نظرت فى الساعة : السادسة إلا عشر دقائق . كويس ! ثم رفعت الأغطية عن السرير ، ووضعتها على كرسى فى مدخل البلكون . وأغلقت النور وخرجت من غرفتها وأغلقت الباب خلفها فى حرص شديد ، فكل من فى البيت نائمون ، وفى خُفٍّ (شبشب) بلاستيك بلا نعل سارت على أصابعها إلى المطبخ .

أضاءت النور ونظرت إلى الساعة :٦ تماماً . جميل جداً . ارتدت المريلة وربطت شعرها بمنديل ، وبدأ برنامج العمل : فنجان قهوة باللبن كبير ، وهى جالسة نظرت إلى الحوض : كوم من الأوانى والأطباق والأكواب والفناجين والملاعق والشوك والسكاكين . لا يهم . كل ذلك يتلاشى بالماء الساخن والصابون السائل والقفاز المطاط فى الكفين ، فعلاً فى نصف ساعة كان الحوض المزدوج الأستنلس ستيل قد خلا من كل ما فيه وتألق نظافة . الآن ينتقل كل شىء إلى مكانه : الآنية والأطباق والملاعق والسكاكين وما إليه . نظرة أخرى على الساعة . السابعة إلا ثلثاً : عظيم ! كل شىء يجرى بغاية النظام .

* * *

الآن تجلس وتأخذ فنجان القهوة الثانى وتفتح الراديو بصوت خفيض وتسمع القرآن الكريم . فى أثناء ذلك تنظر فى الأجندة لتعرف برنامج اليوم . الأكل اليوم : صينية كوسة بالبشاميل وأرز وصلصة . هذا البيت مدمن أرز وصلصة باللحم المفروم . كل شىء جاهز ، مشتريات اليومُ مدوَّنة فى مكانها فى الأجندة : أنبوبتان بوتاجاز وزجاجة زيت وبصل وبرتقال وملح وكبريت .

جرس التليفون يدق فى الصالة . هذه صديقتها أمينة زهدى ، إنها سيدة مرحة خفيفة الظل لا تحمل للدنيا هماً ، إنها صديقة طفولة وصبا ومدرسة . امرأة جميلة فارعة الطول سمراء البشرة . إنها امرأة عملية تعرف ما تريد وتعرف كيف تصل إليه ، لم تنتظر الحب بل تزوجت أول مهندس موسر تقدَّم لها . لم تفكر فى السعادة بقدر ما فكرت فى الحياة الرَّخيّة . نوع الرجل لا يهمها ولا شكله ، وزوجها المهندس إسماعيل حمدى رجل شكله مخيف ، ولكنه مقاول كبير يكسب الآلاف فى الشهر ، وهذا يكفى لكى تحبه . إنها فيلسوفة ولا تفهم لماذا لا بد أن تحب المرأة الرجل لتشعر به : يكفى أن يكون غنياً أو ميسوراً على الأقل ولطيفاً عفيف اللسان كريماً يعطى دون أن يُسأل وصاحب حرفة محترمة اجتماعياً كالطب أو الهندسة . لقد أنجبت منه ولداً واحداً بعد فترة عُقْم طويلة ، وترهلت مع السنين ولكن ماذا يُهم .

إنها تطلبها فى التليفون فى مثل هذه الساعة من كل يوم لتتحدث على حريتها . حديثها متعة لبطلتنا . نسيت أن أقول لك إنها نادية بدر الدين حسن كريمة الدكتور بدر الدين حسن . وأهم ما ينبغى أن تعرفه عنها قلت لك بعضه فيما سبق بالإضافة إلى أنها ورثت عن أبيها قبل زواجها

٤٠,٠٠٠ جنيه والفيلا التى تقطُن فيها الآن ، والباقى يأتى فى غضون الكلام .

صاحبتها أمينة زهدى تقصُّ عليها آخر أخبار النادى فى خمس دقائق تقول كل شىء . إنها من رائدات النادى ، أما نادية فلا تجد وقتاً للنادى . نادراً ما تذهب . تكفيها صديقتان : أمينة هذه ثم زاهية اسماعيل على صديقة العمر . إنها تعمل سكرتيرة السفير فى سفارة أجنبية ، أمينة أيضاً كانت تعمل فى نفس السفارة قبل زواجها وكان راتبها أيامها ٢٥٠ جنيهاً فى الشهر . إنها تعادل الآن ٧٥٠ جنيهاً . زاهية لا زالت فى السفارة رغم زواجها ومرتبها ٦٥٠ جنيهاً . كلتاهما تجيد الفرنسية والإنجليزية فهما بنات ذوات وتربية مدارس إنجليزية وفرنسية . أمينة ألطف من زاهية . إنها تتكلم فى الصباح وتمرُّ على نادية بعد الظهر ، أما زاهية فتمرُّ بعد الظهر فقط . إنها غير سعيدة ، تزوجت مرتين ، وطُلِّقتْ مرتين ، وأصبحت بعد هاتين التجربتين فيلسوفة ساخرة مريرة ، وإن لم تهمل أناقتها وصباغة شعرها بالحنة قط ، ولها أسلوب رائع فى صَبِّ اللعنات على الخلق جميعاً .

تنتهى المكالمة التليفونية السريعة . إنها تليكس الصباح الذى يوقفها على أهم التطورات فى دنياها الصغيرة : دنيا النادى والصديقات والعدوات، السعيدات وغير السعيدات ، والمطلقات وغير المطلقات . وماذا جرى بين فلانة وزوجها ، وماذا فعلت علانة مع زوجها السِّكِّير عاشق الخادمات والمراهقات . إنه مقاول قد الدنيا وإنسان قد البرغوث.

نظرة أخرى على الساعة : السابعة وثلث . هناك عشر دقائق لأخبار

العالم الكبير والجريدة تحت عقب الباب . تنظر فيها : لا شىء : حرب فى فلسطين . حـرب فى الصـومـال . حـرب فى المحيط الأطلسى . حـرب فى أفغـانستان . وحـرب بـاردة ساخنـة فى بولانـدا . وحـرب فى البوسنـة والهرسك . الصحف لا تنشر أخباراً هذه الأيام .

* * *

الآن تبدأ أولى معارك اليوم : إيقـاظ ابنها طارق . لا بد أن يستيقظ الساعـة السابعة والنصف لأن عنـده درس باثولـوجى فى بيت الأستاذ الساعة الثامنـة . هذا الأستاذ منشار كهربائى . من الثـامنة صباحاً إلى الحاديـة عشر ليـلاً دروس . كل مجمـوعـة عشرة طـلاب بمائة جنيـه والمذكرة بتسعة جنيهات . متى يمارس هذا الرجل الطب ؟ لا أحد يدرى . متى يُدِّرس فى الكلية لا أحد يدرى كذلك .

المهم أن يستيقظ طـارق ليحضر الـدرس . من حسن الحظ أن بيت الأستـاذ قريب من هنـا فى نفس شـارعهم . شـارع هارون فى الـدقى . طارق لا يريـد أن يصحو . يقول إنه سينهض ولكنها تعـرفه . لا بد أن تلزم إيقاظه فى دأب . أخيراً ينهض وهو يسبُّ ويلعن ويقول : إنه لم يكن يريـد أن يدخل كليـة الزفت هـذه ، ولكنه يـدخل الحمام مكفهر الـوجه منكـوش الشعر . إنها لا تـدعـه فى الحمام لأنها تعـرف أنه سينـام فى الحمام . تعاود الطَّرْق على الباب ويعاود السُّباب . أخيراً يأتى إلى المطبخ فى نصف مـلابس الخروج ليفطـر . يشرب فنجـان الشـاى ويـرفض شطيرة الجبن الرومى ويقـول إنهم يأكلون أسوأ أكل فى الـدنيا . إنها لا تلقى بـالاً لما يقول فهو صبـى وإن كان فى الحادية والعشريـن . بعد أن

يرتدى ثيابه يطلب منها ثلاثة جنيهات « سلف والله يا ماما » ترفض أن تعطيه . يقول إنها أسوأ أم فى الدنيا . أخيراً يفوز بجنيه ونصف وتغلق الباب خلفه .

* * *

الساعة الآن الثامنة . ساعة الصفر للمعركة الثانية من معارك اليوم . معركة إيقاظ زوجها ماجد . إنه ماجد توفيق صادق وكيل الوزارة المساعد بوزارة الاقتصاد . إنه يشطب كلمة المساعد عندما يذكر وظيفته ويحسب أنه وكيل الوزارة الوحيد فى الدنيا . إنه رجل لطيف جداً ومهذب جداً وليس فيه إلا عيبان : الأول أنه لا يفهم شيئاً فى الاقتصاد ، والثانى أنه يحب النوم ولا ينهض من فراشه إلا بمعركة تستخدم نادية فيها كل أساليب العنف .

ـ قُمْ يا ماجد .. صباح الخير أولاً ..

ـ الساعة كام .

ـ الساعة ثمانية .

ـ طيب . كمان نصف ساعة .

ـ ولا عشر دقائق . الساعة التاسعة عندك اجتماع خطة مع الوكيل الأول .

ويقول وهو يتقلب :

ـ نسيت أن أقول لك إنهم أَجَّلُوه .

ـ غير صحيح .. بالله قُمْ .

وترفع الأغطية عنه ويبدو بالبيجاما ، ويقول فى غضب :

ـ يـاناديـة حرام عليكِ .. مـاذا ينوبك من هذه القسـوة .. هل نحن عسكـر فى قشـلاق .. حتى العسـاكر تنتهـى مدة خـدمتهم ، أمـا أنـا فعسكرى تحت السلاح من يوم أن تزوجنا .

ـ قم يا ماجد .. بلاش كسل .

ـ ستقوم ..

وتفتح النافـذة على مصراعيها فيدخل الهواء وينهض مـاجد يسُبُّ ويلعن ويمضى إلى الحمام . هنـا تتركـه لأنه لا ينـام فى الحمام . تسرع الآن إلى المطبخ وتُعِدُّ الإفطار لسعادة البيه الوكيل . إنه يحب الأكل . إنها تعد له إفطـاره : فول بالسمن وجبن وزيتون وشـاى . إنه إفطار ضخم مكلف ، ولكنه يعدل مزاج ماجـد . بعد أن يملأ بطنه يتحول إلى إنسـان لطيف أمير ويحس أنه وكيل وزارة أول بل وزير .

وبينما يتناول الأب إفطـاره تأتى سوزان ابنتهم . إنها فى العشرين من عمرها وأمها تقول أنها زى القمـر ، وهى قمر فعلاً . جميلة ورقيقة وقارئة وخفيفة الظل ، إنها الوحيـدة بعد أمها فى هذا البيت التى لا تكلف أمها عناء . تستيقظ من تلقاء نفسها وتعد نفسها وتلبس وتسرع لتفطر مع « بـابى » لأن « بابـا » سيأخذهـا معه إلى الكليـة . يُنزِلها هنـاك ثم يمضى إلى الوزارة بسيارة الوزارة .

جرس الخدم يدق . هذا هو بسيونى سائق سيارة الوكيل ، تفتح له

سوزان . يصبِّح ويدعوا للست هانم بالصحة وطول العمر . لكل دعوة من هذه ثمن : الصحة فى مقابل كوب شاى بأربع قطع من السكر ، وطول العمر فى مقابل قطعة من الكيك من الست هانم . يأخذ الكوب والكيك ويغلق باب الخدم حيث ينتظر سيادة الوكيل .

بعد دقائق : الثامنة والنصف تقريباً يكون الأب والبنت والسائق قد مضوا . قبل أن تخرج سوزان تقول لأمها :

ـ تمُرين على فى الكلية الساعة ١١ وأنتِ راجعة يا ماما ؟

ـ طبعاً يا سوزان ..

وكانت تحرص على أن تأخذ ابنتها بنفسها من الكلية بسيارتها الصغيرة . إنها لا تحب أن تترك ابنتها تتسكع فى الكلية بعد الدروس . وهى ـ الأم نادية هانم ـ لا يعجبها طلبة اليوم ، ولا تحتمل أن ترى ابنتها مع شاب « مش قد كده » .. مرة رأتهْا تتسامر مع شاب .

قالت لها :

ـ مين ده ؟!

ـ ده زميل فى الكلية .

ـ طبعا زميل ... وهل سيكون فرَّاشاً ، أقصد ماذا يدرس ؟

ـ معنا فى قسم اللغة الإنجليزية . إنه يسبقنى بسنة .

ـ واسمه .

ـ عزت الشندويلى .

ـ مـافيش طـالب كـويس ابن نـاس ولـه مستقبل يبقى اسمـه الشندويلى .

ـ يا ماما حرام عليكِ ... اسمه كده .. قصدى اسم أبوه .

ـ مادام شندويلى يبقى ماينفعناش ... لا يوجد رجل له مكانة اسمه الشندويلى .

ـ ليه بقى ياماما . طيب وإيه رأيك فى المنفلوطى .

ـ وإيه يعنـى المنفلوطى ؟ راجـل قضى عمـره يبكى ثم عبـأ « عبراته » فى قراطيس سماها كتباً وباعها لهواة الدموع .

ـ مالكيش حق ياماما ... العبرات كتاب عظيم .

ـ لا يمكن أن تكون هناك عبرات عظيمـة .. العبرات دموع والدموع كلها واحد ..

ـ يعنى من الذى يعجبك فى الأدباء ؟

ـ أولاً تسيبى الشندويلى هذا .

ـ سبته ... إنه ليس صديقاً ... من إذن يعجبك من الأدباء ؟

ـ أنت تعرفين ..

ـ طبعاً تـوفيق الحكيم ونجيب محفوظ وعبـد القدوس ... انظـرى مثلاً إلى أسمائهم .

ـ هل الأدباء بالاسم ؟

ـ لا أدرى ولكن « الحلو » يبقى حلو من كله : اسمه وشكله وكتابته ولبسه ... وَلاَّ إيه يا سوزان ؟

إنها عائلة مثقفة ميسورة نشيطة صـاعدة . ولكن الدينامو هنا هى الأم .. هى نـادية . إنها تهلك نفسها فى سبيـل بيتها . تركـت وظيفتها فى السفارة بعـد أن أنجبت طارق وسوزان . كـانت ترى أن الأولاد والبيت أهم . هنا كانت تختلف اختلافاً بيِّنـاً مع صديقتيها أمينة زهدى وزاهية إسماعيل . كان هذا الاختلاف مدار جـدل طويل بين الصديقات . وكان رابطة تجمع بينهن . لأن النـاس تتجمع وتتحابُّ بـالاختلاف أكثـر مما تتحاب بالتشابه .

وفى عودة الأم مع ابنتها من الجامعة يشتريـان الفاكهة وبقية لوازم البيت . وتكون نادية قبل خروجها للعودة بـابنتها قد أعدَّتْ ثلاثة أرباع الطعام . بعـد أن تعودان تعمـلان معاً فى المطبـخ . فى هذه الأثنـاء أيضاً يكون أحمد وهـو الابن الأصغر قد صحا وغسل وجهـه وأفطر بما بقى من أبيه وأخته . اليوم يوم الأحد ولا مدرسة وراءه . لهذا تركته أمه ينام مِلْء عينيه . إنه فى مدرسة إنجليزية تكلف العائلة فوق المائة والخمسين جنيهاً فى الشهر .

* * *

الساعة الثانية بعد الظهر من نفس اليوم .

البيت هادىء . كل شىء فيه مستقر فى موضعه . عم إمام يفرُغ الآن من غسيل الحمام الصغير . هذا البيت فيه حمامـان كاملان . واحد كبير للأب والأم وابنتهما سوزان . الثانى للولدين طارق وأحمد . الأم جهزت هذا الحمام الثانى على نفقتهـا . فى الأصل كان مجرد تواليت . أنفقت من

مالها ألفَىْ جنيه لكى يكون هناك حمام كامل من آخر طراز لطارق وأحمد . عم إمام يأتى هنا ثلاث ساعات كل يوم لتنظيف النوافذ والسجاجيد والحمامات ويخدم الأسرة على الغداء سفرجياً . ثم يأخذ ما تيسر من الطعام والأشياء ويمضى . إنه رجل نظيف جداً وأمين جداً وهو فى السبعين من عمره . هذا الصنف من المساعدين فى البيت لا يقل عمر الواحد منهم اليوم عن الستين سنة . الجيل الجديد من الطباخين والسائقين والشغالين فى البيوت جيل قطاع طرق . إنهم لا يجيدون شيئاً فى البيت ولكنهم يطلبون أجوراً لا تقل عن مائة جنيهٍ ليشتروا البدل الجينز ويسرحوا شعورهم افرد ـ لوك ويدخنوا السجائر الأمريكية والساعة المذهبة فى اليد ، وكذلك الكاسيت وفيه شرائط هزليات مُقزِّزَةٌ ألفها وأخرجها ممثلون كان ينبغى أن يكونوا شغالين فى البيوت ولكنهم ضلوا طريقهم ودخلوا المسرح ، لأن المسرح نفسه ليس مسرحاً وإنما هو جراج حولوه إلى مسرح وسموه مسرح باولى يريدون مسافكت باولى حى العاهرات فى هامبورج . المسرح سينما فى نفس الوقت تعرض أفلام الجنس والعنف والكاراتيه والكونغوفو .

الأم نادية هانم جالسة فى حجرة ابنتها سوزان والباب مغلق لأنهما تُجرِّبان فستاناً جديداً اشترته سوزان من بوتيك صغير . الأم والبنت تتسامران والتفاهم بينهما كامل . الأم تستعيد فى ابنتها ذكريات ما مضى من شباب يكاد الأب والأولاد يستنفدونه ، والبنت ترى فى أمها صورة حلوة ترسم لها طريق الغد .

عم إمام فى المطبخ ، لقد فرغ من كل شىء وأعدَّ السَّفْرة وجلس يقرأ مجلة ، طارق يعود من كلية الطب . ينادى فلا يرد عليه أحد . يلقى

الكتب على كرسى وثير فى الصالة ويدخل المطبخ فيرى عم إمام فيقول غاضباً :

ـ ما هذا يا عم إمام ؟! نحن نموت من الجوع وأنت جالس تقرأ المجلة .

ـ لم أنتبه لدخولك يا طارق بك .

ـ الدكتور طارق ..

ـ ولا مؤاخذة الدكتور طارق ...

ـ أنا هاموت من الجوع ... هات الأكل ..

ـ أقول لنادية هانم ... اجلس إلى المائدة وفى دقائق يأتيك الطعام .

ويقول طارق غاضباً :

ـ كل حاجة نادية هانم نادية هانم ... أليست فى هذا البيت إلا ماما ... أقول لك إننى جائع تقول لى إنك تستأذن ماما .

ـ وماذا فى ذلك يا دكتور طارق .. أليست ست البيت ولا بد أن استأذنها قبل أن أقدم الطعام ... هكذا نحن من عشر سنوات .

ـ لكن الآن هناك شىء جديد .. كنا من قبل أولاداً ولكننى اليوم دكتور ومن حقى أن أأمر فى هذا البيت فأُطَاع .

وعلى الصوت العالى تأتى نادية هانم ومن خلفها سوزان .

ـ إيه يا عم إمام .. إيه الحكاية؟

وبهدوء الرجل الطيب الحسن التربية يقول إمام :

ـ لا شـــيء يا ست هانم ... الدكتـور طارق يطلب الطعام وسأقدمه له ... أحببت أن أستأذنك فقط .

ـــ طيب ... لا عليك يـا طـارق ، بمجـــرد أن تـدخل غـرفتك وتُغيِّر ملابسك وتغسل يديك يكون الطعام على المائدة ... أرجو كذلك أن يصل أبوك الآن ... نَادِ أحمد من غرفته يا سوزان .

ويقول طارق غاضباً :

ـ قلت لكِ يامـاما إننى جائع وعندى ماتش تنس فى النـادى الساعة الثالثة والنصف ... أريـد أن آكل أى شـيء ، ثم أستريح فى غرفتى نصف ساعة ثم أخرج .

ـ يا طـارق هذا البيت فيه نظام .. كلهـا دقائق ويأتى أبوك ونجلس إلى المائدة كعادتنا .

ـ قلت : إننى سـآكل الآن وســآكل الآن ... زهقنـا من العبـوديـة لنظامك .. أنا الآن دكتور ... عارفه يعنى إيه دكتور ؟

ـ طبعـاً عارفه ... لهذا أطلب شيئـاً من النظام .. وهل هنـاك دكتور يجلس إلى المائدة دون أن يغسل يديه ؟

ـ أى إنك تُصرِّينَ على أن تُعلِّمينى ..

ـ ماذا جرى لك يا طارق ... خرجتَ من هنا فى الصباح سعيداً فماذا جرى لك ؟

ـ الـذى جـــرى لى أننى اتهزأت ... نصف سـاعـة وأنـــا أنتظـر الأوتوبيس ، وبعد ذلك انحشـرت .. فى تـاكسى مع « شوية فلاحين » .. ووصلت الكلية تعبان وقرفان ...

ـ ألم يكن عندك درس خصوصى عند أستاذ الباثولوجى ؟

ـ حضرته ترك لنا ورقة تقـول إنه يعطى الدرس اليوم بعد الظهر فى غرفـة الأطباء خارج عنبر ٢٢ جراحة فى القصر الجديـد ... أنا زهقت من هذه المرمطة ...

ويأتى الأب ويُدهَشُ لهذا النقاش الحادّ .

ـ إيه ... فيه إيه يا نادية ؟

ـ شوف ابنك طارق ماذا به ..

ويقول طارق :

ـ يا بابا أنا لم أَعُدْ أحتمل ذلك ... كل يوم مرمطة فى المواصلات وكل أصحابى عندهم عربيات . لا يوجد طالب طب بدون سيارة إلا أنا .

ـ طيب .. معلش يـا طـارق ... هدىء أعصـابك . وسنتحـدث على الطعـام بهدوء ... دقائق أُغيِّر فيهـا مـلابسى وأغسل يـدى ووجهى ثم نتغدى .. أنا أيضاً جائع جداً .

ويجلسون إلى المائدة وعم إمام يقوم بدور السفرجى . يغرف الطبق الأول : أرز بالصلصـة ... طارق لا يأكل . الأم تـلاحظ ذلك . الأب يأكل بشهيـة ويـداعب سـوزان وأحمد ويقصُّ شيئـاً ممـا جرى اليـوم فى الوزارة . ينتهى الطبق الأول ثم يأتى الثانى ، ويقول طارق غاضباً :

ـ قلت ألف مرة إننى لا أحـب هذه الكوسة بالبشاميل فى الفرن ..

وتقول نادية :

ـ ليه .. ما لها يا طارق؟

ـ قصـــدى أننا الآن لنـا عشرون سنة نأكل نفس الطعـام فى نفس اليوم ... فى البيوت الأخرى الأكل أشكال وألوان .. أول أمس تغديتُ عند سامح نور .. ليست عندكم فكرة عن الأكل ... ومع ذلك فأبوه مدير عام لا وكيل وزارة .

ويقول الأب مسترضياً :

ـ وليه تزعل يا دكتور طارق ... نعمل مـا تريد ... كـل ما تريـــد .. لا بركة لنا إلا أنت ... ما رأيك يا نادية ؟

وتقول نادية فى حَزْمٍ وهدوء :

ـــ لا .. هـذا ليس رأيى ... نحن نقـدم هنـا أحسن طعـام نستطيع تقديمه .. ما له أكل اليوم ؟!

ويقول طارق غاضباً :

ـ لنا عشرون سنة نأكله ..

ـ وثلاثون أيضاً .. هذا أحسن وأفضل ما نستطيع .

ـ واشمعنا سامح نور ..

ـ لا أدرى ماذا يفعلون فى بيت سامح نور .

ويقول الأب :

ـ يعنى أبـوه مش حاجة ... مديـر عام فى شركة قطاع عـام ... ماذا عندهم أحسن منا ؟

ويقول طارق :

ـ عندهم يـا بابـا أحسن منـا ألف مرة ... عنـدهم شغال وطبـاخ وسفـرجى وسامح عنـده سيارة وأختـه سوسن عنـدها سيـارة ، غير سيارة نور بك سلامة وسيارة ست هانم .

ويقول الأب مواصلاً استرضاء ابنه :

ـ يا طارق كل إنسـان يعمل ما يستطيع ... لا أدرى ماذا يعمل نور بك سلامة ... يمكن عنده تجارة أو حاجة ..

وتقول سوزان :

ـ نور سلامة هذا حرامى ، وابنته سوسن فى كلية الاقتصاد ... إنها تلبس ملابس أميرة وسيـارة شركة أبيها تنتظرها كـل يوم على الباب .. وكل يومين تأتى وهى تقول أنها فى انتظار سيارة آخر طراز ..

وينهر طارق أخته ويقول :

ـ اسكتى أنتِ يـا ست سوزان .. أنـا لا يهمنى إن كان نور سـلامة حرامى أو تاجر مخدرات ، المهم أن ابنه عنده سيارة وينفق بغير حساب وبيتهم سراية .

وتقول الأم :

ـ أما أنا فيُهمنِّى ألاَّ يكون أبوك لِصاً أو تاجر مخدرات ، نحن عائلة محترمة تنفق على قـدر ما تستطيع ، ونحن ليس لدينا إلا راتب مـاجد . وهو راتب محترم .

فيرد طارق :

ـ لهذا نحن فقراء ..

تقول الأم :

ـ نحن لسنا فقراء .. نحن ناس محترمون ..

ـ ونـور سلامـة ! ليس محترماً ... إنـه محترم أكثر منـا ألف مرة ، والشركة تخصص له سيارتين وسائقين .

ويرد أحمد الصغير :

ـ وابنهم خالد عنده موتوسيكل .

وتقول الأم :

ـ يعنى ماذا تريد أن تقول يا طارق ؟

ـ أريد أن أقول إنـه عيب علينا أن نعيش فى هذا المستوى البسيط .. ما معنى أن أنتظـر الأتوبيس كـل يـوم سـاعة فى الـذهاب وسـاعة فى المجيء .. وأخيراً أركب تـاكسى مع ناس زى الهم .. هـذه ليست حياة لدكتور .

وتقول سوزان :

ـ لست بعد دكتوراً . أنت يادوبك فى سنة ثانية طب ... وناجح دايماً بمقبول ..

ويقول طارق :

ـ أنت تسكت بنتك يـابابـا ... هـذه الطفلة لا يحق لها التـدخل فى الحديث عندما نتكلم .

وتقول الأم :

ـ شوف يا طارق .. لقد طوَّلت بالى عليك جداً .. وأنت ينبغى أن تفهم أنك واحـد من أسرة ، واحد من خمسـة ، ونحن كلنا نتعـاون لكى نشق طريقنا ولكى نعاونكم على عمل مستقبل لكم .. أنت تعرف كم تَعِبَ أبوك بدخولك كلية الطب ..

ـ أنا لم أُرِدْ أن أدخل الطب .. دخلت هـذه الكليـة من أجلكم .. ومع ذلك فأنا الآن أملكم الوحيد فى حيـاة أفضل .. وعندما أتخرج سأعطيكم كل ما تريدون .

ويقول الأب :

ـ إن شاء الله يا طارق .. ربنا يسمع منك .

وتقول الأم :

ـ يعنى إيه يا ماجد أن طـارق بعد أن يتخرج سينفق علينا ؟

ـ يعنى سيساعدنا .

ـ لا يـا ماجـد ... طـارق دخل كليـة الطب لنفسـه وسيتخرج لنفسه ، وهذه العـائلة لن تأخذ منه مليماً . نحن نُـربِّيه وننفق عليه لأن هذا حقه علينا ، ولكنه ليس مُلْزمـاً بالإنفاق علينا .. وخُدْ نقودك لنفسك يا سى طارق ، المهم أن تنجح .

ـ كيف أنجـح وأنـا أعيش فى هـذه البهـدلـة كل يـوم .. إن كل أصحابى يُعيِّرونني .

ـ يُعيِّرونك بماذا ؟

ـ بأننى فقيـر يا ماما .. هذه هى الحقيقة .. وأنتم عندكم الفلوس

وتستطيعون شراء سيارة لى .. كل زملائى عندهم سيارات .. العائلة التى فيها طالب طب تقوم الأسرة كلها بخدمته ، وصاحبى إبراهيم زكى تقف أمه على رأسه وهو يأكل .

وتقول الأم :

ـ لأنها تنتظر أن ينفق عليها عندما يتخرج ، أما أنت فلن تنفق علىّ شيئاً .. عندما تصبح طبيباً ستكون طبيباً لنفسك . لهذا لن أقف على رأسك وأنت تأكل أبداً .. إذا كنت تريد أن تلبس ست الحبايب أسود فى أسود وتلف رأسها بالطرحة وتبكى عند يَدَىْ ابنها فذلك مستحيل .

ويقول الابن :

ـ كفاية عليكِ الزواق والكوافيرات .

وتغضب الأم وتقول وهى تضبط أعصابها :

ـ شوف يا طارق ، أنا أقوم بواجبكم بأقصى ما أستطيع . من الخامسة والنصف صباحاً وأنا على قدمى أعمل من أجلكم ، أطبخ وأغسل دون أن أشكو بكلمة ، بل أنا سعيدة بذلك . وبعد أن أتيت أنت وسوزان تركت عملى ومرتبى الكبير لكى أتفرغ لكم ، وأم صاحبك إبراهيم زكى لم تترك عملها بالمدرسة حتى أحيلت للمعاش . وبتدليل ابنها وإذلالها نفسها جعلت بيتها بيت متسولين ، وأبوه يسير فى الشوارع ببذلة مغطاة بالبقع .. الوحيد الذى يعيش عندهم هو صاحبك إبراهيم الذى يمتص دم أمه وأبيه وإخوته لأنه فى كلية الطب وسيصبح طبيباً .. إبراهيم هذا عندما يتخرج سيكون عليه أن يكمل تعليم إخوته الأربعة .وسيذبح المرضى فى هذا السبيل ... نحن لسنا هكذا ، نحن

نحترم أنفسنا لأننا نريد أن نُعلِّم أولادنا احترام النفس ... أبوك رجل شريف ولا يستطيع أبداً أن يعمل عمل نور سلامة ..

يقول طارق محتجاً :

ـ أنا لا يهمنى ما تعملون .. يهمنى أن أكون مثل زملائى .. أريد سيارة ..

ـ السيارة تشتريها عندما تتخرج ، من مالك أنت .

ـ طيب ، وماذا تعملون إذا أنا توقفت عن الذهاب إلى كلية الطب .

ـ إذا ذهبت فأنت تذهب لنفسك ، وإذا لم تذهب فأنت الجانى على نفسك ... ونحن هنا نقوم بكل ما نستطيع من أجلك . أكثر من هذا لن نعمل ، ولن نذل أنفسنا بين يديك . ولن يسرق أبوك لتركب سيارة .

وتتعالى الأصوات وتتداخل ويتحول الأمر إلى شجار حقيقى بين الأم والابن ، وأحمد ينضم لأخيه وسوزان إلى أمها ، والأب يضيع فى التوفيق بينهما ، ويصل الأمر إلى درجة الدَّقِّ على المنضدة باليد والأم لا تتراجع أبداً والابن طارق يتطاول على أبويه .

وأخيراً تنفجر سوزان باكية :

ـ كفاية .. كفاية بقى .. حرام عليكم .. دى مش عيشة ..

ويقول طارق :

ـ طبعاً مش عيشة .. ما دام ست ماما عاوزه تحكمنا تبقى مش عيشة ... ابنها على وَشْك أن يصبح طبيباً وهى تعامله كأنه ولد ... وأنا قلت: إننى أريد سيارة ولا بد أن تشتروا لى سيارة ...

[٢]

لم تكن السيدة نادية بدر الدين حسن من الطراز الذى ينحنى للعواصف . بل كانت تقف صامدة فى وجه العاصفة حتى تمر . ولم يكن ذلك عناداً بل كان احتراماً للنفس . وعندما تركت وظيفتها فى السفارة الأجنبية لتعتنى بتربية أولادها كانت تعرف مقدار التضحية التى قامت بها . ولكنها كانت تعرف أيضاً أن تربية أولادها أهم من كل وظيفة وأعزُّ من أى مال ، لأن الوظيفة تُعوَّض أما أولاد من غير تربية فخسارة لا تعوض أبداً .

وقد شعرت بألم بالغ عندما تطاول عليها ابنها طارق وتحداها وقال : إنها لايمكن أن تحكم الأسرة وأنه يريد سيارة ، ولا بد أن تشترى له الأسرة سيارة . لقد تصاعدت أبخرة « كلية الطب » إلى دماغه وجعلته يتصور أنه من الآن فصاعداً نجم الأسرة وأملها فى الحياة .

ومرت أيام هدأت فيها العاصفة . وواصلت نادية عملها كعادتها بنظام وفهم وإخلاص . كانت تفرغ من عملها كله فى الرابعة بعد الظهر ، بعد ذلك تجلس فى الصالون لتشرب الشاى وتستريح وتقرأ الصحف وتستقبل صديقاتها ، وربما شهدت بعضَ أشياء فى التليفزيون . هنا كانت تلبس ملابس جميلة أنيقة وتُمشِّط شعرها وتُزيِّن نفسها بحساب لتستمتع بوجودها كامرأة وإلى جانبها دائماً ابنتها سوزان طالبة قسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب . كانت حبيبة أمها وسلوتها فى الحياة .

زارتها صديقتها زاهيـة إسماعيل على ، وزاهية من أسرة غنية وهى نموذج للألوف من نساء مصر . تزوجت الرجل الذى اختارته لها أسرتها والظروف الاجتماعية هذه ، فهو طبيب ميسور الحال وربما كان نحيفاً وزاهية عندها سيارة وزوجها لـه سيارة وابنها الكبير وهو ملازم أول فى الجيش عنـده سيارة . والأسرة كلهـا من هـواة النادى . الإيـراد كبير والزوج طيب القلب وافر الكسب والزوجـة زاهية لطيفة جداً ، ويمكن أن توصف بأنها جميلـة فملامحها صغيرة متناسقـة ، وهى سمينة بعض الشىء ، وزوجهـا الدكتـور عبـد الرحمن يعتبر سمنتهـا من نعم اللـه الكبرى عليه ...

قالت زاهية وهى تضحك وتتناول قطعة من الكيك :

ـ وماله يا نادية ... هاتوا لـه عربية ... طارق باسم الله ما شاء الله فى سنة ثانية طب ويستحق سيارة ..

ـ من أين يا زاهية ..أنتِ تعرفين الزير وغطاه ..

وبأسلـوبها الـذى يستسهل كل شىء [لأن كـل حياتها سهلـة] تقول :

ـ يـا نادية هـذه ليست مشكلة ... هناك سيـارات صغيرة بخمسة آلاف جنيه ...اشتروا له واحدة ... كمان حرام إن طارق ابنك يتمرمط فى المواصلات...

ـ يا زاهيـة أنتِ تعرفين أحـوالنا أكثر منى ... هل يخدعك أن ماجد زوجى وكيل وزارة .. إن كل مرتبـه لا يصل إلى ٣٥٠ جنيه .. ليتـه كان

طبيباً مثل الدكتور عبد الرحمن ... ثم إن المسألة ليست مسألة بهدلة فى المواصلات ... إنها مسألة تربية . هؤلاء الشبان سيصبحون أطباء ويخدمون البلد ، وعليهم أن يعرفوا بلدهم . وهل هو عيب أن يركب المواصلات .

ـ برضه مش قيمة يا نادية والولد حكيم وابن ناس كبار ..

ـ لا يا زاهية ... نحن لسنا كباراً ... نحن ناس نكافح لكى نربى هؤلاء الأولاد ... إننا نفسدهم إذا اشترينا لهم سيارات ، لأنهم بهذا يفقدون الإحساس بالأشياء وقيمتها ... إذا كان طارق يريد سيارة فلينتظر حتى يشتريها من كسبه ، وصدقينى إننا لا نملك مالاً نشترى به سيارة له .

وتأتى صديقتها الثانية أمينة زهدى ، إنها زميلة دراسة ، وقد تزوجت دون حب أو حتى ميل ، إنها امرأة عملية . زوجها إسماعيل حمدى مهندس ومقاول وعنده مال لا بأس به ، ولكنها لم تفرط قط فى وظيفتها فى السفارة . إن راتبها الآن يصل إلى ٧٥٠ جنيهاً فهى سكرتيرة الملحق التجارى فى السفارة ... وهى لم تنجب ولكن ذلك لا يهمها . وزوجها حاول أن يتزوج غيرها لينجب ، وتبين له فى النهاية أنه لن ينجب فعاد إليها .ولم تهتم هى لذلك . ولم تغضب حين تزوج عليها ، ولا هى فرحت عندما عاد إليها ، ورأيها أن الرجال كلهم طراز واحد ... ليس فيهم واحد يستحق دموع امرأة . وتقول :

ـ نادية عندها حق . كل أولاد هذه الأيام يريدون أن يكونوا أسياد العائلة ، نتعب ونشقى فى تربيتهم وتعليمهم حتى إذا دخل الواحد منهم

الجامعة حسب أنه أصبح سيد البيت يأمر وينهى . إنهم ينسون أنهم مهما يكبرون فهم يظلون أولادنا ولنا عليهم على الأقل حق الاحترام . ما دُمْنَا نحن نحترمهم فلماذا لا يحترموننا هم . إننى فعلاً سعيدة جداً فليس لى أولاد يعذبوننى ، ونادية ـ يا عينى ـ تصحو من الفجر لتعمل لهم كل شىء . ثم يجىء هذا المفعوص طارق ويتأمر ويحسب نفسه ملك البيت ويطلب سيارة ... ومن أين تأتيه نادية بالسيارة ؟

وتقول زاهية إسماعيل على :

ـ معلش يا أمينة ... إنهم أولادنا . وليس لنا سواهم .

وتقول نادية : هذا هو الخطأ يا زاهية : أن نقول أنه ليس لنا سواهم . لدينا أنفسنا يا زاهية ، نحن نربى وننفق ونخدم ، ولكن ليس معنى هذا أننا لا شىء إلى جانب الأولاد ... إن لنا الحق فى أن نعيش حياتنا ، وخاصة الأمهات ، حرام أن نضحى بهن ، وأن تتحول الأم إلى خادمة أو مُربِّية لأولادها ... ماذا تعنين يا نادية .. أنتِ عندك ثلاثة أولاد فهل معنى ذلك أن يركبوك وتهملى نفسك وتتحولى إلى امرأة عجوز تلبس الأسود وتلف رأسها بالطرحة وتقضى عمرك خادمة للأولاد .

وتقول زاهية :

ـ يعنى ... برضه عندما يكبرون سيسألون عنا .. وهل لنا بركة غيرهم .

ـ حقاً ليس لنا بركة غيرهم ، ولكننا لا ينبغى أن ننتظر أن يسألوا عنا عندما نكبر . من الخطأ أن نربى الأولاد لكى نصبح عبئاً على أكتافهم عندما يكبرون ... نُربِّيهم ونُعلِّمهم حتى إذا كبروا وساروا فى طريقهم

ظللنا نحن محترمين ، وفى غِنَى عن مساعدة الأولاد ، إننى أرى أننا نحن السيدات على خطأ عندما نفكر هذا التفكير .. إننا نفقد شخصيتنا واحترامنا بل نفقد دورنا كربَّات بيوت ومديرات أسر ، فالأولاد يحسبون أنهم سيردون لنا ما ننفق عليهم عندما نكبر ونقعد عن العمل أنا شخصياً لا أريد من أولادى شيئاً ... كل ما أتمناه أن يكبروا ويشقوا طريقهم ويستقلوا بحياتهم ثم يدعوننا أنا وماجد نعيش حياتنا عندما تتقدم بنا السن .. ما أجمل أن نفرغ من تربية الأولاد ونستقر فى بيوتنا ونتأملهم ـ كل منهم فى بيته وطريقه .. يزورونا ونزورهم وكل منا مستقل بحياته ... لقد رأيت من أيام صديقتنا بدرية عبد السلام التى كانت معنا فى المدرسة الثانوية ... المسكينة ترهلت وتلفَّعَتْ بالأسود وحجَّتْ على نفقة أبنائها وأصبحت الحاجة بدرية ... وهى الآن تقوم بتربية أولاد أولادها .. ثلاثة منهم عندهم أطفال ، وكلهم يأتون لأمهم بالأطفال طوال النهار ... والحاجة المسكينة فقدت حياتها تماما ... لن أرضى بهذا المصير قط ...

وتقول أمينة زهدى :

ـ براقُو يا نادية ... عندك حق ... وماجد بك لا بد أن يقف إلى جانبك .

ـ ماجد ياستى فرحان بأن ابنه دخل كلية الطب ... وحضرته فاكر أن طارق لما يكبر ويفتح عيادة سينفق علينا ... ولهذا فهو لا يرفض له طلب ..

ـ والسيارة .. هل هو مستعد لأن يشترى له سيارة ؟

ـ من أين ... إن ماجد مرتبه محدود ، ونحن ناس نعيش بذمة وضمير ، ولهذا فليس لدينا فائض نشترى به سيارات للأولاد ... وطارق ينظر لسامح ابن نور سلامة ويقول أن عندهم سيارات وخدم وفلوس كتير .

وتقول أمينة زهدى :

ـ وأين نحن وأين نور سلامة ... هذا رجل يلعب بالفلوس ، ولا يدرى أحد من أين يأتى بها . وزوجته التى كانت من عشر سنوات لا تملك إلا حتة جلابية أصبحت اليوم تركب السيارة وتسافر إلى أوروبا تشترى فساتين وعطور .

وتقول نادية :

ـ أهو طارق بقى ... يريد أن يصبح أبوه مثل نور سلامة وأن أصبح أنا مثل جمالات صالح امرأة نور سلامة ..

وتقول زاهية إسماعيل :

ـ يانـدامة وهل هذا معقول ... نادية بدر الدين التى كانت من عشرين سنة سكرتيرة سفارة ومتعلمة فى أحسن مدارس تصبح مثل جمالات صالح .

وتقول أمينة زهدى :

ـ صدقينى يا زاهية .. الأولاد لا يهمهم أمر الآباء والأمهات .. المهم أن يحصلوا على المال ومظاهر الترف ... والولد لا يهمه ماذا يفعل أبوه ، وماذا تفعل أمه أو أخته ... المهم أن تكون له سيارة ، وأن يكون جيبه عامراً بالمال .

وتنظر زاهيـة فى ساعتهـا وتنهض لـلانصراف إلى بيتها لأن الأولاد كما تقول بحاجة إليها وتنصرف ، وتبقى أمينة مع نادية فتقول لها :

ـ نادية ... أريـد أن أكلمك فى مسألة أظن أنها تهمك ... لقد انتظرت حتى تنصرف زاهية لكى نتحدث فى هدوء ... الآن كبر أولادك ولم يعودوا محتاجين إليك كما كان الحال قبلاً ... ما رأيك فى أن تشتغلى ؟

ـ وماذا أشتغل الآن .

ـ عندى لك عمل عظيم .

ـ إذا كان هناك عمل لائق فلا مانع عندى من التفكيـر ... صدقينى يا أمينـة .لقد نفـد كل ما كنت ادخـرته من سنـوات العمل .. أنفقته على البيت وماجد والأولاد ..

ـ وهل شكر لك أحد منهم ذلك ؟

ـ ها أنت ترين .

ـ إذن فاسمعى منى ... السفارة التى أعمل فيها أنشأت دار ضيافة للفنيين والأساتـذة والأخصائيين ... أجـروا بيتاً عظيماً فى المهنـدسين ، سبعة أدوار ، مدير هذا البيت رجل أمريكى عظيم اسمه المستر ادواردز ، وهو فى حاجة إلى مشرفة على هذا البيت ... شىء يسمونه هاوس كيبر ... واحدة محترمـة من عيلـة محترمة تعرف شئـون البيت وتـدبير المنازل وتعرف كيف تـدير الشغالين والطباخين وتأخذ عهـدة البيت ... وظيفة كبيرة جداً مرتبها حاجة زى ٥٠٠ جنيه .

ـ ٥٠٠ جنيه !

ـ آه والله يا نادية .. وليس هناك إلا أنت لمثل هذا العمل .. أنتِ تعرفين لغات وعندك شخصية وخبرة ، ولا زلت شابة أنيقة وشيك .

ـ هل أنت تسخرين منى ؟

ـ لا والله يا نادية .. أنت باسم الله ما شاء الله لا زلت كما كنا فى المدرسة ... وعندما كلّمنى فى ذلك السفير والمستر ادواردز رشحتُك لهم . وهم ينتظرون ردَّكِ ..

ـ يا أمينة شغل إيه .. أعود فأعمل من جديد .

ـ طبعاً يا نادية .. تعودين للعمل .. هذا العمل لا يصلح له إلا أنت وتفكر نادية لحظة ثم تقول :

ـ أفكر يا أمينة .. ولكن لماذا لا تأخذين أنت هذا العمل ؟

ـ لأننى سعيدة جداً بعملى فى السفارة . ومن هذا الشهر أنا مديرة مكتب السفير ومرتبى الآن ٧٥٠ جنيهاً .

ـ براڤو عليكى يا أمينة .. والله أنت التى تفوقت علينا كلنا .

ـ أتدرين لماذا ؟

ـ لأنك ليس لك إلا ولد واحد وهو الآن فى أمريكا .

ـ بالضبط .. ليس هناك عفاريت يريدون أن أكون خادمة لهم .. وإسماعيل عقل أخيراً ولا يفكر فى أولاد تانى .. ونحن نعيش فى هدوء ..

وبعد لحظة صمت تقول :

ـ هه يا نادية .. ماذا تقولين .

ـ أفكر .. وأنظر ماذا أفعل مع الأولاد ..

ـ إذن فعندك أسبوع للتفكير .. المستر ادواردز سافر إلى أوروبا ويعود بعد أسبوع .. وهو ينتظر منى رداً عندما يعود .

ـ وهل وظيفة كهذه ستنتظرنى؟

ـ نعم .. المهم أن تقررى أنت.

* * *

بعد ظهر اليوم التالى لهذا الحديث كانت نادية جالسة إلى مكتبها فى حجرتها . إنها تُدوِّن حساباتها . إن إيراد الأسرة قليل ونفقاتها بلا نهاية ، والموضوع لا يحتاج إلى تدبير منزلى بل إلى تدبير سحرى .

إنها عملية مستحيلة : أن تجمع طرفى الشهر فى حدود مرتب الزوج . إنها تكتب كل مليم تنفقه وتحسب حساب كل رغيف خبز يدخل البيت . لا أحد يعلم ذلك ، وعم إمام وحده يتقاضى خمسة وسبعين جنيهاً فى الشهر ، ويأخذ معه لعياله بقية الطعام . إنه جالس فى المطبخ ينتظر طارق لكى يقدم له طعام الغداء . أخيراً وعندما دقَّتْ الثالثة والنصف رتَّب كل شىء على منضدة الطعام وغطاه واستأذن من نادية وانصرف . بعد نصف ساعة أتى طارق . قال : إنه كان فى درس باثولوجى خاص ، وأول ما وصل نادى أمه . وضعتْ القلم وخلعتْ النظارة ومضَتْ فوضعت له الطعام وهى تسأله فى رِقَّةٍ ومحبة عما عمل ولماذا تأخر . إنه لا يرد ، إنه غاضب ، ينظر إلى الطعام ولا يعجبه .يشرب كوب ماء وينظر إلى أمه ويقول :

ـ يا ماما أنتِ تعرفين أننى لا أحب البفتيك جافاً هكذا .. وهذا النوع من المكرونة لا يعجبنى .

ونادية لا ترد . إنها تواصل وضـع الطعام والشاب يزداد غضباً ثم يقول :

ـ إذا كان هذا هو كل الطعام فأنا لن آكل .

وتقول الأم فى رفق :

ـ يا طارق ، هذا أقصى ما أستطيع أن أعمل ... وهذا طعام جيد ولا أدرى لماذا لا يعجبك ..

ـ إنه فقير يا ماما .. فقير .. أتعرفين ما معنى فقير ، كنت أستطيع أن أتغدى عند صديقى عصام عاشور ... أتعرفين ماذا يأكلون عند عصام عاشـــور ؟ أصناف وألـــوان وسفرجى وشغالة ...

ـ هذا كل ما عندنا يا طارق .. والأكل أمامك وأنا ذاهبة إلى غرفتى ..

ـ وأين عم إمام ؟

ـ انتظرك إلى الساعة الثالثة والنصف ثم مضى ..

ـ طبعاً ما دمتم تدفعون له مـلاليم ... عصام عاشور عندهم طباخ وسفـرجى وشغالتـان ، وأمه فى المطبـــخ حتى يأتى عصام وتخدمـه بنفسهـا .. لقـد رأيتهـا فى المطبخ فى جلباب أسـود وعلى رأسها منـديل أسود ، وهى تُعِدُّ الطعام لأولادها ولا تخرج من المطبخ إلا إذا تغدى آخر واحد فيهم .. إنهم خمسة ..

وتقول الأم وكأنها لم تسمع شيئاً :

ـ هل تريد شيئاً آخر ... إن ورائى عملاً فى غرفتى .

ـ طبعاً .. مادُمْتِ تريدين أن تكونى أنيقة شابة ، ولا يعنيك أمر أولادك .. إن أم عصام عاشور .

وتقاطعه قائلة :

ـ إننى لا أعرف هذه السيدة ولا دخل لى فيما تعمل ، إنها تتصرف بحسب ما ترى وأنا أتصرف كما أريد ... كل منا تدير بيتها بالطريقة التى تريدها .

ـ ولكننا متعبون هنا يا ماما .. نحن لا نأكل ولا نشرب ونحن نشقى فى المواصلات ، إن والد عصام عاشور صاحب مكتب تصدير واستيراد ... المكتب متر فى متر وليس فيه إلا سكرتيرة ، ومع ذلك فهم يعيشون أحسن منا مائة مرة ... ثم نقول إن أبى وكيل وزارة ، وماذا نكسب من وكالة الوزارة ؟ وعصام عنده سيارة وأخته سهام عندها سيارة .

وتقول الأم :

ـ الآن تتغدى ثم تنهض لأنى أريد أن أرفع المائدة وأغسل الأطباق .. لا أستطيع أن أقف بين يديك إلى الليل .

ويقول الولد فى دهشة ووقاحة :

ـ يا سلام .

وتقول الأم فى حزم :

ـ لا لزوم للكلام ولا للسخرية .. إننى متعبة ووراثى شغل كتير .

ويصيح الولد فى غضب وهو يقف ويضرب المائدة بيده :

ـــ وهل عنـــدك شغـل أهم منى .. طبعاً تـريـدين أن تـذهبى إلى الكوافيرة .. لا شىء فى الدنيا يهمك غير نفسك .. وابنك الدكتور ؟

وتنفجر الأم وقد فاض بها الغضب :

ـــ دكتور أو تمرجى ، هـذا لا يهمنى .. الذى يهمنى أن يكـون ابنى مهـذبـاً فاهماً ذكيـاً ولا يتعـدى حـدوده ... لقد تحملت منك فـوق مـا أستطيع وأرجوك أن تقفل فمك وكفاية قلة أدب .

يزداد الابن المتمرد غضباً ويقول :

ـ قلة أدب ... أنا قليل الأدب .

ـ أيوه قليل الأدب، وأنا أمك ، ولى الحق فى أن أقول لك ذلك .

ـ لا لست أمى ولا أريد أن تكونـى أمى .. الأم هى أم عصام عاشور التى تقف على قـدميهـا فى المطبخ لتلبى كل طلب لـلأولاد ... الأم هى أم سـامح نور التـى تعطى ابنها كل مـا يـريـد : عشرين تلاتين جنيـه ... وبنزين السيارة ...

ويتصاعـد النقاش الحاد حتى يصير شجـاراً حقيقياً ، ويُقبِلُ الأب من غرفته مذعوراً ، وسـوزان تهرول إلى غرفتها وفى عينيها الدموع وفى أثرها الابن الأصغر أحمد ، وكان معها فى الغرفة .

ويقول الأب :

ـ إيه بس يا نادية .. ماذا حدث ؟

ـ سَلْ ابنك يقول لك ..

ـ إيه الحكاية يا طارق .؟

ـ ست هانم ياسى بابا .. ابنها يأتى متعباً من الكلية والدروس وهى لا تريد أن تتحرك من غرفتها .. إنها طوال اليوم أمام المرآة ونحن نحترق ..

ـ يا نادية ماذا جرى ؟ دائماً تُغضِبينَ طارق .. الولد مُتْعب وعنده دروس كثيرة وهو محتاج إلى رعاية ..

ـ أنا أعطيه هذه الرعاية ..

ويقول طارق :

ـ لا ياستى ... هذه الرعاية لا تعجبنى ولا أنا أرضى بها .. ليس فى الدنيا أم تعامل أولادها كما تعاملنا ماما . انظر يا أبى .. هل هذا طعام ؟

ويتلعثم الأب ويقول كالخائف من ابنه :

ـ ماله الأكل يا طارق ... أكل كويس وكلنا تغدينا منه ..

ـ لأن الست الهانم عوَّدتنا على الفقْر ... أصحابى يعودون إلى بيوتهم فى أى وقت ويجدون الأم والسفرجى والأكل الذى يحبونه ... أما نحن فحضرة ماما تقدم لنا ما تريد وقتما تريد ... وتدع عم إمام ينصرف قبل أن أعود .

ويقول الأب ، وقد وجد شماعة يعلق عليها غضبه :

ـ وأين ذهب إمام هذا ... لماذا لا ينتظر طارق حتى يغديه ؟

ـ لأن الرجل انتظر إلى الثالثة والنصف ، وهو يسكن فى إمبابة وأمامه مشوار طويل .

ويقول الابن :

ـ وأنا ليس عندى مشوار طويل .. أخذنا الدرس فى بيت الدكتور فى شارع قصر العينى ، ولى ساعة فى الطريق ..

يقول الأب :

ـ معلش يا طارق ..

ويجيب الابن :

ـ مافيش حاجة اسمها معلش .. ونحن لا نخضع أبداً للست الهانم ... إنها تهملنا ولا يهمها إلا نفسها وصديقاتها والكوافيرة والتواليت ، أنا شبعت من هذا القرف.

وتصيح سوزان باكية :

ـ حرام عليك بقى .. دع ماما لحالها ..

ويقول الأب :

ـ صحيح يا نادية ... أنت لا تعطين طارق حقه .. طارق الآن طبيب ويحتاج إلى خدمة خاصة وأنت لا تقومين إلا بالضرورى .. إنه على حق ، والأمهات الأخريات يخدمْنَ الأسرة من الصباح إلى المساء ...

وتنظر إليه نادية وتقول :

ـ كل هذا ولا يكفيك .

ويتشجع الأب وينضم إلى ابنه صراحة ويقول :

ـ طبعا طارق عنده حق .. وأنا أيضاً عندى حق، والأم الحقيقية لا بد أن تكون خادمة الأسرة .. لست أقصد خادمة .. بل أريد أن تخدم الأسرة وتنسى نفسها ... تصـوروا إننى لا بد أن أستأذن زوجتى لكى أحصل على فنجان شاى .

وتقول سوزان :

ـ يا بابـا الشاى فى المطبخ ... كله موجـود ومن يريـد الشـاى ما عليه إلا أن يصُـبَّ لنفسه ما يريد من التُّـرْمُس .

ويصيح طارق :

ـ اسكتى أنتِ .. أنت لا تفهمين ، وماما تعطيك كل شىء .

ويقول الأب :

ـ الحَقُّ يا نـادية الولد عنده حق .. إيه الحكـاية ، وماذا تخسرين إذا أعددت له الطعام الذى يريده ؟

ـ ألم تقل الآن إن الطعام طيب ؟

ـ طيب لى ، ولكن طـارق يستحق عناية خاصـة .. إنه يستحق منك عناية أكثر بكثير مما تعطينه .

ـ والله يا بـابا .. إن أم عصام عاشور طول الليـل والنهار فى خدمة أولادها ... إنها لا تبخل عليهم بشىء ، لا من راحتها ولا من مالها ... من يـومين فقط اشترت له فيـديو .. وهـذا غير الميوزيك ست والسيـارة ... ونحن ...

ويستكمل الأب شجاعته ويقول :

ـ شوف بقى يا نادية .. هذا الحال لا يرضى به أحد ... طارق تعبان وليس لدينا إلا هو ... لا بد أن يأكل ما يريد .. ولا بد أن يجد من ينتظره عندما يعود . وبصراحة إنتِ يادوبك تشرفين على الطعام وتقدمين لنا ما تريدين.

ـ هذا رأيك يا ماجد؟

ـ بصراحة هذا رأيى أيضاً ، وأنت لا تقومين لنا إلا بمجهود ضئيل وتنفقين علينا ملاليم ... وأنا أعطيك كل راتبى .

ويقول أحمد الصغير :

ـ صحيح يا ماما.. وعزت صاحبى عنده كل شىء ، ويأخذ فى اليوم نصف جنيه مصروف .

وتقول الأم :

ـ يعنى عاوزين تقولوا إنى مقصرة فى حقكم .

وتصرخ سوزان :

ـ لا يا ماما .. لا تسمعى لهم ... حرام يا بابا حرام ... ماما من الفجر على قدميها .. إنها تعمل المستحيل ... ليست هناك أم تعمل نصف ما تعمل هى ..

ويصيح الأب وقد أصبح سيد الموقف :

ـ اسكتى إنتِ يا سوزان ... هذا أمر لا تفهمين فيه .. إن نادية

تتصرف فينا كما تريد ، وقد نفد صبرى ، ولم أَعُدْ أحتمل ، إنى أعطيها كل مرتبى .

ويقول طارق صارخاً :

ـ وهى تنفق نصفه على ملابسها وشعرها ، وابنها يعانى فى الأتوبيس والمواصلات .

ويقول الأب :

ـ اسكت أنت يا طارق . أنا أعرف كل ذلك ، وأنا المخطىء ، أنا سلَّمت إليها قيادة البيت وأنا أعرف أنها لا تستطيع تحمُّل المسئولية . إنها مشغولة بنفسها وصديقاتها ، كفاية عليها أمينة زهدى وست زاهية إسماعيل على ، نحن لا حساب لنا عندها ، عندما أحتاج لفنجان شاى بعد الظهر لا بد أن أُعِدَّهُ بنفسى . الست الهانم مش فاضية . إنها لا تدخل المطبخ بعد الظهر .

وتصرخ سوزان باكية :

ـ ألا يكفيكم أنها فى المطبخ وشغل البيت من الساعة الخامسة صباحا ؟

ويقول طارق ساخراً :

ـ وماذا تعمل ؟ ها نحن لا نأكل بأكثر من مائة جنيه فى الشهر . هل هذا طعام ذلك الذى تقدمه لنا ، أنت لا تعرفين ما تعمل الأمهات فى البيوت الأخرى ، أنا أعرف ماذا يأكلون هناك وأبوهم ليس وكيل وزارة

وتقول الأم السيدة نادية بدر الدين وهى لا تصدق ما تسمع :

ـ هكذا يا طارق ...

ويستمر الابن فى ثورته :

ـ أجـل ، وأكثر من ذلك كمان .. أنا أعرف لماذا لا تريدين أن يشترى لي بابا سيارة .. إنك تريدين أن تشترى لنفسك سيارة ..

ـ أنا يا طارق ؟

ـ نعم ، سمعتك تتحـدثين مع ست أمينـة زهـدى ، عن سيـارتها القـديمة ، وأنكِ تـريدين شراءهـا ...مَنْ أَوْلى بالسيـارة أنت أم أنا .. أنـا طالب الطب ..

ـ وهل سمعتنى أقول إننى أريد شراء سيارة أمينة ..

ـ طبعاً ..

ـ من أين تعلمت الكذب يا طارق ؟

ويصل غضب الابن إلى الهياج ويقول :

ـ أنا كذاب يا ماما ..

ويقول الأب :

ـ لا يا نادية هذا لا يجوز ... كيف تقولين لطارق إنه كذاب .

وتقول نادية وقد بدأت موجة الهياج تجتاحها :

ـ أنا لم أقل إنـه كذاب ، ومع ذلك فهو كـذاب لأنه يكـذب ، فأنا ما تكلمت مع أمينة فى شراء سيارتها لأننى لا أملك ما أشتريها به .

ويصيح طارق :

ـ كذب .

ـ أنا كذابة يا طارق ؟

ويقول الأب : إذا كان الولد قد سمعك بأذنيه ..

ـ عيـب يا ماجـد ... لا يصح أن تقـول ذلك . إن علينا أن نـربى أولادنا ، وطارق يكذب وأنا أمه ولى الحـق فى أن أقول له إنه يكذب .

ويقول الأب: لا ، ليس لك هذا الحق ... تربية الأولاد وأمهم أيضاً من حقى أنا ... أنـا رجل البيت .. وأنا صبرت عليك طـويلاً ، وآن الأوان لأن أقول لك إنك لا بد أن تقفى عند حدودك.

ـ وما هى حدودى ؟

ـ اسـمعى يا نـادية .. نحن لا نـريد مضايقتـك ، والبيت الآن فيه رجلان ، ومن المستحيل أن يغلب علينا رأيك ... ستـذلينا بمسألة الأكل والمطبخ والبيت ، لقد قال لك طارق ماذا تعمل الأمهات الأخريات اللاتى يُـحْببنَ أُسرَهُنَّ ... حدودك المطبخ وتـدبير البيت ، ومن الآن سأتولى أنا كل شىء .

ويقول طارق :

ـ وستشترى لى السيارة يا أبى . أليس كذلك ؟

ـ طبعاً يا طارق .

ثم يقول لزوجته :

ـ الآن أريـد الحساب .. اذهبوا أنتـم لشـغلكم يا أولاد .. سأصفى الحساب مع نادية .

وتقول نادية :

ـ لا .. بل يظل الأولاد ليروا كل شىء ..

ويريد طارق الذهاب. لقد حصل على وعد بالسيارة وانتهى هنا ما يهمه ، ولكن نادية تقول :

ـ لا يا طارق ، لن تخرج من هنا حتى ترى كل شىء بنفسك ، هذا من حقّك ، وواجبى أن أعرفك بكل الحقائق .

ـ يا مـــاما .. مسألة الحسابات هذه لا تهمنى .. أنا ورائى مذاكرة ودروس ..

ـ إذا خرج واحد منكم من هنا فلا حساب ..

ـ يعنى إيه ... ؟ لن تشتروا لى السيارة ..

ـ ســـــترى بنفسك الآن كل شىء ، ستعرف إن كنت تستطيع الحصول على سيارة أو لا تستطيع ... هاتِ لى دفاتر الحسابات يا سوزان.

وتمضى سوزان وتأتى بدفتر حسابات كبير ودوسيه فواتير ومفكرة صغيرة ، وتفتح الأم الدفتر وتقول :

ـ ماجد .. كم جنيهاً تعطينى فى الشهر ..

ـ كل مرتبى ..

ـ مرتبك ٣٥٠ جنيهاً فهل أنت تعطينى كل شهر ٣٥٠ جنيهاً .

ـ لا .. ٣٠٠ وأنت وافقت على ذلك .

ـ نحن لا نناقش ذلك الآن ، نريد أن نعمل الحساب أمام أولادنا ...

ـ طيب يا ست هانم ، أنا أعطيك كل شهر ٣٠٠ جنيه ، ولا يبقى معى إلا ٥٠ جنيهاً ... هل هى كتير علىَّ .

ويقول طارق :

ـ لا يا بابا ... هذا أقل ما ينبغى لك ... أنت وكيل وزارة ..

ـ ووكيل الوزارة كم يتقاضى فى الشهر عن جلسات واجتماعات ومكافآت إضافية ..

ويقول ماجد غاضباً :

ـ وهل لكِ دخل فى ذلك .. هل تريدين محاسبتى على هذا أيضاً ...

ـ نعم .

ـ هذا ليس من حقك ..

ـ بل من حقى ، لأنك كل شهر تسترد من الثلاثمائة جنيه مابين عشرين وثلاثين جنيهاً ..

ـ عندما تنتهى تقولى أستدين منك عشرة .. خمسة عشر جنيهاً .. ثم أردها .

ـ هذا الشهر أخذت منى ٢٠ جنيهاً يوم ١٨ ، وعشرة جنيهات يوم ٢٤ ، فهل رَددْتَ لى ٣٠ جنيهًا .

ـ مش عارف ..

ـ بل تعرف ... كل شىء مُدوَّن هنا ..

ويقول طارق :

ـ بابا من حقه أن يأخذ ما يريد وكلها فلوسه .

ـ حسناً ... نسير فى الحساب . أعطيتنى هذا الشهر ٣٠٠ جنيه وأخذت ٣٠ .

ـ هذا الشهر فقط ... كان شهر غير عادى ..

ـ والشهر الماضى أخذت ٥٠ ثم ١٥ ولم تردها ..

ويجنح الأب ويقول مستنكراً :

ـ الأمر لله يا طارق ... هذا محضر تحقيق .

وتواصل الأم تقليب الدفتر وتقول :

ـ والشهر الذى قبله أخذت ٥٠ جنيهاً والذى قبله ستين .

ويضيق صدر الوالد ويقول :

ـ مانا تريدين أن تقولى ؟

ـ أريد أن أقول إنك تعطينى كل شهر ٣٠٠ ، وتسترد ٥٠ فى المتوسط ، فكل ما آخذه منك مائتان وخمسون .

ويقول طارق :

ـ كويسين ... هذا مبلغ كبير .

وتقول الأم :

ـ نعم كبير ندفع منه ٦٠ نور وميه و ٥٠ تليفون و ٤٥ للبواب والزبال .

ويقول طارق :

ـ الزبال ...

ـ نعم لأنه يأخذ زبالة البيت كل يوم .

ـ ولماذا لا يحملها عم إمام وينزل بها كل يوم ؟

ـ وهل توقف الآن على ٣ جنيه للزبال ؟ و٧٥ جنيه لعم إمام ..

ـ ولماذا يأخذ عم إمام هذا المبلغ كله ؟

ـ لأنه يعمل هنا كل يوم من السابعة إلى الخامسة بعد الظهر ..

ـ تستغنى عنه !

ـ فى بيوت أصحابك لا يوجد خدم؟

ـ يعنى ... لكن احنا حاجة تانية ..

ـ طيب نعمل الحساب ، ثم نرى ماذا نعمل بإمام وغيره ، أنا آخذ منك ٣٠٠ جنيه ، والمصروفات الدائمة ١٥٠ فالباقى ١٥٠ .. هل هذه تكفى لمصروف البيت ؟

يقول ماجد :

ـ يعنى بالتدبير والتوفير من مصاريف الكوافيرة ، وأدوات الزينة .

ويقول طارق :

ـ طبعاً...

وتقول الأم :

ـ طارق ... هذا الشهر أنت أخذْتَ منى ٨٠ جنيهاً .

ويقول طارق دهشاً :

ـ بتوع إيه ؟

ـ بتوع الدكتور مدرس الباثولوجى ..

ـ آه ... يعنى لا آخذ دروساً ..

ـ لا لا تأخذ ... المهم ... هذا الشهر كل ما بقى مما أعطيتنى إياه يا ماجد خمسة جنيهات ...

ـ غير معقول ..

ـ والشهر الماضى دفعنا ٨٠ جنيهاً درس الباثولوجى ... وطارق يأخذ كل شهر مصروف جيب وسوزان ٥٠ جنيهاً ..

ويقول أحمد الصغير :

ـ وأنا عشرة فقط ..

ويقول الأب : إذن نحن نعيش من الهواء .

ـ لا ... من المبلغ الذى كنت ادخرته من عملى ، وميراث أبى قبل زواجنا ..

ـ كان مبلغاً كبيراً ... حوالى ٥٠٠٠٠ جنيه عن عملها وميراثها عن أبيها .. وفلوسى وفلوسك واحد..

ـ إلى الآن كانت شيئاً واحداً ، وما فكرت لحظة فى أن أَضِنَّ بمليم مما عندى ..

ويقول ماجد :

ـ طيب .. نستمر على ذلك . ولا بد أن هناك شيئاً تستعين به على شراء سيارة طارق ... أنا قلت إننى أستطيع تدبير ألف جنيه ..

ـ مع الأسف ... هـذا كل ما بقى من نقـودى .. أمامكم الحسـابات شهراً بشهر . وهذه دفاتر الشيكات .. راجعوا كيف تشاءون .. وأنت يا ماجـد وكيل الوزارة للشئون المالية .. هـذه هى الدفاتر أمـامك أريد أن ترى منها كـم أنفقتُ على البيت وكم أنفقت على نفسى ؟

وتضايق طارق وقال :

ـ المهم كم الباقى ؟

وتقدم الأم كشف حساب البنك للأب ، وينظر ويقول :

ـ ٨٠٠ جنيه .

ويصرخ طارق :

ـ أين ذهبت النقود ؟

ـ الدفـاتر مع أبيك ... بعد أن تعملوا الحساب نـادونى ، وأنا ذاهبة الآن إلى حجرتى ... تعالى يا سوزان ، اذهبى أنت لحجرتك .. دعى البيت لرجال البيت . أنا ذاهبة لأستريح ..

ويمسك الأب الدفاتر وينظر ، ويجلـس إلى جانبه ابنه يراجع ، وعلى وجهيهما حزن ودهشة .

* * *

[٣]

جلست نادية فى غرفتها صـامتة ، ملامح وجهها تتحدث عن شىء أكثر من الحزن ، إنها الحسرة والألم العميق وخيبة الأمل . معقول هذا ؟ ثلاثة وعشرون سنة من الزواج والإخـلاص والتفانى والأشغال الشاقة وهذه هى النتيجة ؟ هل هذا هو كل ما للزوجة والأم فى هذا البيت ؟ العمل من الفجر إلى الغروب . وإرهـاق النفس والتضحية بكل شىء ثم يكون هذا كل ما لها : الزوج لا يراهـا إلا خادمة ولا رأى لها فى شىء ويتهمها بالجهل والتبـذير ، والابن ينهـر وينتظر منهـا أن تسعد بـالارتماء عند قدميه ، أى وجود للمرأة هنا وأى مصير ؟ .

ويطرق الباب فى رِقَّـةٍ . إنها ابنتها سوزان وهى تعرفهـا منْ نَقْرها على الباب ، وتدخل سوزان باكية وهى تقول :

ـ معقول هذا يا ماما .. معقول هذا الذى يعملونه معك ؟

ـ نعم يـا سوزان ... فى بلدنا هـذا هو وحده المعقول . وهـذا هو كل مصير المرأة .

ـ ونقودك .. كيف أنفقتيها عن آخرها علينا .

ـ إذا كنت قد أنفقتُ الصحـة والعمر ، وهى أعـزُّ من المال . فكيف أبخل بالمال ؟ كنت أظن أن هناك على الأقل الشكر وعرفان الجميل .

وتقول سوزان باكية :

ـ ولكن طـارق يا مامـا ... كيف يفعل معك ذلك .. كيـف يقـول ما قال ؟

ـ طارق مثل كل الشبان فى هذا البلد ، الأم خادمة . عليها أن تعمل وتشقى حتى تشيخ وينحنى ظهرها وتترهل وهى واقفة فى المطبخ ، وأقصى ما يمنحونها إياه نظرة عطف : ست الحبايب .

ـ وماذا ستفعلين الآن ؟

ـ لا أدرى ...

ـ معلش يا ماما ... برضه أنتِ الخير والبركة .

وتقاطعها الأم : لا يا سوزى . لن أنتظر حتى أصبح مجرد بركة .. لن أنتظر حتى يكبر طارق ويعطينى نفقات الحج لأصبح ست الحاجة ..سأحج يومًا ما ، ولكن على حسابى ... لن أنتظر المصير الذى يريدونه لى .

ـ ولكنك يا ماما صبرت طويلاً ..

ـ وهذا هو خطأى وخطأ أمثالى من الأمهات : الصبر إلى ما لا نهاية ، الصبر بلا حدود ... هذا هو الذى يفسد الزوج ويفسد الأولاد ... كنت أحسب أن الأم هى سيدة البيت فعلاً ولها كلمة فيه .. وها أنتِ تَرَيْنَ ماذا كانت النتيجة ...

ـ وماذا ستفعلين .

ـ لا أعرف ... أريد أن أفكر ... لا بد أن أعمل شيئاً . كل شىء ممكن إلا الاستمرار على هذا الحال . لقد داسونى بالأقدام ، لو سكتُّ لداسونى مرة أخرى وثالثة ورابعة ، وبعد ذلك أصبح ممسحة ... هذا ليس فى صالح الأسرة ولا فى صالح طارق أو حتى ماجد ... ربما كنت أنا

المسئولة عما حدث . لهذا لا أريد أن أكون مسئولة عما سيحدث ... اسمعى يا سوزى .. اذهبى إلى غرفتك الآن وفكّرى لأنى أريد أن أخلو بنفسى هنا وأفكر ..

ـ طيب يا ماما .. أتركك الآن .. وعندما تنتهين إلى رأى نادينى .

ـ لا يا سوزى .. لا تتركى لى الرأى .. لا تتركى الرأى فى أمر من أمورك لأحد ينفرد به من دونك .. أنتِ بنتى ولكنى لن أفكر لك ... لن أفكر نيابة عنك .. فكرى أنت أيضاً .. فهو مصيرى ومصيرك .. أقصد مصيرك فيما بعد عندما تكون لك أسرة وبيت .. من الآن لا بد أن تعرفى طريقك .. سأساعدك على تعرُّف طريقك ، ولكنى لن أجده لك .

ـ إذن أتركك الآن ، وعندما تحتاجين إلىَّ أنا فى حجرتى .

* * *

وتستقر نادية فى غرفتها . إن ما حدث خلال الأيام الأخيرة غير معقول ، كانت تحس أن أمور بيتها لا تسير كما كانت تتمنى ، كانت تحس أن هناك عاصفة فى الطريق وأن السحب تتجمع ، ولكنها لم تكن تتوقع أن يكون الانفجار مروعاً على الصورة التى رأتها ، كلهم ينكرون فضلها . كلهم يريدون أن يدوسوها بأقدامهم . هل من المعقول أن زوجها ماجد ـ وهو يعرف قدرها ـ يطالبها بالحساب كأنها خادمة تسرق من أسعار الحاجيات ؟ ولكن الذنب ذنبها . لقد نسيت أنها تعيش فى عالم صنعه الرجال على مقياس الرجال . هنا لا مكان للمرأة أصلاً ، مكانها على هامش الزوج ، ثم على هامش الأولاد والوظيفة الحقيقية خادمة ، السيدات اللاتى يَرضَيْنَ بدور الخادمة لا يشعُرْنَ

بـذلك ، إنهن راضيات بمصيرهن وبما يُلْقَى إليهن من فُتَـاتٍ ، ولكنهن بذلك يقضين على الأسرة . الأسرة فى حاجـة إلى أم تتصرف كأم ، يعاملها النـاس على أنها أم لها نصيبهـا من السيـادة ولها حقـوقهـا ومجال سلطانها . عندما تتحـول الأم إلى خادمة تضيع الأسرة ...لهذا ينبغى أن تتصرف ، ينبغى أن تحتفـظ بسيـادتها لكـى تحافظ على أسرتها ، إنها ليست غاضبة على طارق لأنه يعاملها وكأنه سيد ثانٍ فى البيت بعد أبيه . لـو رضيتْ بذلك لعـاملها أحمد الصغير نفس المعـاملة . لا بـد أن تفعل شيئاً لإنقاذ نفسها وأسرتها.

ومضى يومان ، وفى اليوم الثالث كانت قد انتهت إلى قرار.

ورفعت سماعة التليفـون وطلبت صديقتها أمينـة فى السفارة التى تعمل فيها ، قالت فى صوت هادىء :

ـ أمينـة ... الوظيفة التى حـدثتينى عنها ، عن بيت الضيافـة الذى أنشأه الأمريكيون هل لا زالت شاغرة ؟

ـ أنتِ بنت حـلال .. مستشـار السفـارة كلّمنى الآن . إنـه يتعجل الترشيح ، والمستر ادواردز سيأتى الآن ..

ـ ومن المستر ادواردز هذا ؟

ـ مدير البيت .. إنه هو الذى يبحث عن مديرة للبيت ، ولكن قولى لى لماذا تسألينى ؟

ـ أريد أن أسألك .. هل أصلح أنا لهذه الوظيفة .

ـ نادية .. ! جادة أنت ؟ هل تعرفين أن هذه الوظيفة تحتاج إلى تفرُّغ

كامل.. تذهبين هناك فى السابعة صباحاً وتظلّين فى العمل إلى الثالثة بعد الظهر.

ـ ومستعدة أن أنام فى موقع العمل أيضاً .

ـ نادية ! لا أصدق ما أسمع ! إمـا أن أكون أنا قد جُنِنْتُ ، أو تكونى أنت التى أصابها الجنون .

ـ لا أنا ولا أنت .. أنتِ كنت عـاقلة دائماً لأنك بقيتِ فى وظيفتك ، أما أنا فقد عقلت .

ـ هذا كلام كبير يا نادية .. التليفون لا ينفع هنا .. أريد أن آتى إليك لا أطيق الصبر ، ولكنى لا أستطيع تـرك المكتب الآن . السفير فى انتظـار المستر ادواردز .

ـ أى أنك ستَرِيْنَهُ الآن ...

ـ طبعاً ... إن موعده الحادية عشرة وسيأتى بالدقيقة .

ـ إذن قولى له إنك وجدت المديرة وحدِّدى لى معه موعداً .

ـ هل فكرتِ فى ذلك جيداً ؟ إن هؤلاء الرجال جادُّون ، والكلمة معهم عقد .

ـ وأنا أيضاً ... حددى لى معه موعداً اليوم إذا أمكن .

ـ ألا تنتظرين حتى نتكلم أنا وأنت ؟

ـ نتكلم بعد ذلك .

ـ أمرك يا ست نادية . يعجبك اليوم بعد الظهر ؟

ـ نعم ، فى أى وقت يريد .

حسناً يا نادية .. الآن سأقفل السكة ، السفير يطلبنى .

ـ اتفقنا .. أنا فى انتظارك ..

وتضع السماعة وتحمد الله . كانت تخشى أن تكون الوظيفة قد ضاعت . لقد أنهت معظم عملها فى البيت لهذا اليوم نهضت فى الخامسة والنصف على عادتها ، عم إمام يعمل فى المطبخ . الآن تذهب إليه لإنجاز كل شىء ، منذ المناقشة الحامية أو المشاجرة الحاسمة قبل أيام وهى لا تكلم إلا ابنتها سوزان ، انتهى الكلام بينها وبين زوجها وابنها طارق . الصغير أحمد انضم إلى أخيه وأبيه ، العائلة الواحدة أصبحت عائلتين . السادة فى ناحية ، والعبيد فى ناحية . فى صف العبيد وقف عم إمام .

فرغَتْ من كل شىء الواحدة بعد الظهر ، أعطت تعليماتها لعم إمام وأَوَتْ إلى غرفتها ، دفاترها وأوراقها لا زالت على منضدة فى الصالة . السادة ينظرون فيها بين الحين والحين . وصلت الأزمة إلى مرحلة المواجهة ، والسادة لا يتنازلون ويكلمون العبيد قط . إنهم يحققون معهم لأن العبيد دائماً مذنبون والسادة دائماً على حق .

وتأتى سوزان من الجامعة .. من باب الڤيلا إلى غرفة أمها . إنها متحيرة من أمر ما حدث ولكنها سعيدة به . أخيراً جاء وقت المعركة التى انتظرتها دون أن تدرى كيف تكون . أمها اليوم تقود المعركة وهى من خلفها .

وتدخل سوزان غرفة الأم . تجدها مُرَتَّبةً على العادة وأمها خلعَتْ ملابس العمل ولبست بلوزة وجونيلا وسرَّحتْ شعرها ورتَّبتْ هيأتها

أمام المرآة وفتحت الـراديو لتسمع موسيقى رقيقة وجلست تقـرأ قصة مدام جوفارى . ضـحية الخاطئين التى اتخذوها جميعاً كبش فداء .

وتقول سوزان بعد أن تُقبل أمها :

ـ إيه ... مافيش أخبار ؟

ـ فيه .

قالت ـ فى لهفة البنت المتشوقة إلى التغيير ـ :

ـ إيه يا ماما ... قولى .. قولى ..

ـ أولاً إجلسى واسمعى كلامى كلـه بهدوء . لقد فكَّرْتُ فى كل شىء واتخذت قرارى وأريد رأيك .

ـ حاضر .. حاضر .. تكلَّمى .

وبكل هدوء قالت الأم بعد أن أوقفت الموسيقى :

ـ لقد قررت أن أعود إلى العمل فى السفارة .

وقالت سوزان فى خيبة أمل :

ـ ومـاذا نكون قد صنعنا .. ستعملين وسيأخذون نقودك ، وطارق سيشـترى السيارة ..

ـ لا يا سوزان .. سأعمل وسأترك البيت .

وفى فزع قالت الصغيرة :

ـ إلى أين يا ماما ـ وتتركيننى ؟

ـ لا يا سوزان ... أنت الوحيدة التى ستعرف أين أقيم .

ـ وأين تقيمين ؟

ـ فى نفس مكان العمل ... سأكون مديرة دار ضيافة أنشأتها إحدى السفارات .

ـ مدبرة ؟ ما معنى مدبرة .. هل هذه وظيفة .

ـ نعـــم هى وظيفة ، ووظيفة محترمة جداً وراتبها كبير ... يسمونها هاوس كيبر .

ـ وماذا سيكون عملك هناك ؟

ـ نفس عملى هنا ...

ـ يعنى الخدمة ...

ـ نعم خدمة . كل عمل يُؤْجَـرُ عليه الإنسان خدمة . كل من يعملون فى الدولة من الكبير إلى الصغير خـدم ... يسمونهم سيفيل سيرفانتس . ولكن الفـرق يـرجع إلى من تعملين معـه ولـه ، فإن كـان محترمـاً فإن الخدمة تكـون محترمة ، وإذا لم يكن هو محترمـاً فأى عمل معه يصبح مهانة بدون مهانة .. وأنا هنـا فى هذا البـــيت ربة بيت ... المفروض أننى سيـدة هـذا البيت ، ولكنهم لم يفهمـــوا عملى ولا قـدرونى . اعتبرونى خادمة . خادمة بـدون أجر . بل كنت أدفع من عندى مالاً ... وليتهم مع ذلك رضوا عنى .

ـ ولكن يا ماما ، لا بد أن أعرف ماذا ستعملين .

ـ سأقـول لك عندمـا أتكلم مع المدير .. ولكن ثِقى أننـى أعرف أين

أضع نفسى . ما دام أحبُّ الناس إلىّ لم يعرفوا مقامى فلا بد أن أُعرفهم بمقامى .

ـ ولكن ماذا ستقولين لهم هنا ؟

ـ لا شىء ... إذا أعجبتنى شروط العمل هناك سأستقيل من هنا ..

ـ ماما .. أنا لا أفهم ... تستقيلين من ماذا؟!

ـ من عملى هنا ... إننى هنا زوجة وأم . هذه وظيفة لا تتغير ، وهذه الوظيفة تفرض علىّ التزامات كنت أؤديها سعيدة بها ، ولكنهم لم يعرفوا قدرها ... لهذا سأستقيل من هذه الالتزامات ... بعبارة أخرى ، سأؤدى نفس الخدمة لناس آخرين ، ناس يحترمون العمل والعامل ويعطونه أجراً عادلاً ...

ـ ستعملين بيدك ؟ ستقفين فى المطبخ ... ستمسكين المقشة ..؟

ـ لا يا سوزان .. هذا ليس من عمل الهاوس كيبر .. بيوت الضيافة والفنادق تحتاج إلى إدارة وإشراف على الذين يقومون بالعمل : الطباخين والخدم والسفرجية والفراشين .. ومع كلٍّ فأسئلتك هذه سابقة لأوانها .. انتظرى حتى أتكلم معهم ثم أعود إليك .

وتحاول سوزان الكلام ولكنها تتوقف . هناك ضجيج وأصوات فى الدور الأول من البيت . سوزان تفتح الباب وتسمع إنه صوت طارق . إنه غاضب يتحدث مع أبيه .

ـ وبعدين يا بابا ... ماذا سنعمل مع ست هانم التى تتدلل علينا .. أربعة أيام اليوم ولا يراها أحد .. تطبخ لنا أى كلام ثم تأوى إلى

غرفتها .. ست هانم تريد أن تؤدبنا .. أنت المسئول يا أبى .. أنت تتساهل معها .. إنها تريد أن تركبنا ... ماذا فى الأمر إذا كنتُ قد تكلّمت بشىء من الحدة .. صاحبى عصام يقول لأمه مايشاء وهى لا تغضب أبداً .. بالعكس .. هى التى تسترضيه دائماً .. وست ماما زعلانه لأن ابنها قال لها الحق .

ويقول الأب :

ـ والله يا طارق أنا لا أدرى ماذا أصاب نادية ..

ـ أنت .. أنت السبب ..

وكان عم إمام واقفاً فى المطبخ ، فخرج وسأله :

ـ الأكل جاهز يا سعادة البيك .. هل أُعِدُّ السفرة .

ويقول طارق ساخراً :

ـ سفرة .. ولماذا سفرة ـ هذا الطعام الحقير الذى تعدونه لنا لا يستحق سفرة .. كُلْهُ أنت وست هانم وست سوزان ... أنا ذاهب لأتغدى فى بيت محترم .. سآكل عند صاحبى عصام عاشور .. والله لقد ألح علىّ فى أن آكل عندهم ، ولكنى حسبت أن الحال هنا تحسن .. وها أنت ترى .. ست هانم نائمة فى غرفتها وعم إمام يستأذن لكى يقدم لنا بعض الخضار المسلوق .. وبعدين .. أنا محتاج لنقود .

ـ أنت ترى الحال يا طارق .. نحن لم نكن نعلم شيئاً عن حالتنا المالية .. انتظر إلى أول الشهر .

ـ وهل تصدق هذه الدفاتر وتلك الأوراق؟

ـ طارق .. ماذا تريد أن تقول ؟

ـ قصـدى أن ماما عندهـا الفلوس .. غير معقول إنـك تكون وكيل وزارة وأكبر من والـد نور سـلامة وتكـون تلك هى حالتك الماليـة .. أم سامح نور سيـدة تعرف مقام بيتها وزوجهـا وأولادها .. وإنما عندهم نقود .. نور يلعب بالفلوس لعباً .

ـ ربما كـان عندك حق يا طارق .. سأعيد النظر فى هذه الأوراق .. هناك شىء لا أفهمه ..

ـ ولكنى أفهم كل شىء .. أفهم أنك دللتها أكثـر مما ينبغى ، وأنـا كنت ضعيفاً أمـامها .. انتظـر يا والـدى .. سأسأل عصام مـاذا لديهم اليوم .

ويمسك التليفون ويُـحدِّث صديقه عصام عاشور .. إنه يسكن على بعد خطوات منهم .. إنه أيضاً طالب فى الطب ..

وبعد المكالمة يقول لأبيه :

ـ هـذه هى البيوت يـاسى بابـا .. هناك الأكل أشكـال وألوان ، وأم عصام بنفسهـا نفيسة هـانم تقف على خدمـة عصام وأخيـه وأخته ... عنـدهم طبـاخ وسفـرجى واثنـان من الخدم .. ونحن .. كفـايـة علينـا الكوافيرات وعم إمام .. أنا ماشى .. وأنت لازم تشوف لنا صرفة معها .. هذه ليست معاملة طالب فى السنة الثـانية طب .. سأتغدى هناك وأذاكر وربما أتعشى ..

ويخرج الابن وهو ينظر إلى عم إمام بازدراء ، ويقول عم إمام :

ـ أحضر الأكل يا سعادة البيه ..

ـ لا .. هات لى الست .. نادية ... يا نادية ..

ومن أعلا تقف نادية وتقول :

ـ فيه حاجة ؟

ويرد ماجد غاضباً :

ـ كل هـذا وتسألين : فيه حاجـة ـ طبعـاً فيه .. الولـد مشى .. ترك البيت .. عاجبك ؟

ـ وماذا أعمل ؟

ـ أنتِ السبب ـ كلنا لا تعجبنا هذه المعاملة ـ كلنا لا نفهم شيئاً وأنت السبب .. اتفضـلى تعالى .. تعالى شوفى لك صرفة فى بيتك...

ـ أنا عمـلت ما عندى ، نظفت البيت وأعددت الطعـام .. هذا كل ما عندى .. وينفجر الأب غاضباً ويقول :

ـ مـاذا تريدين ـ أن أخسر أولادى بسببك ؟ خربْتِ البيت وتقولين : إن هذا كل مـا عندك ؟ لا يا ست نادية ، والكـلام ده مايعجبنيش .. وإذا كانت المعاملة الطيبة لا تنفع فإن لى كلاماً آخر .

وتتركه نادية وتدخل حجـرتها ومن ورائها ابنتها ، وتغلـق الباب . واليوم التالى تقول لابنتها :

ـ ما رأيك يا سوزان فيما حدث بالأمس ؟

ـ إننى لا أصدق أذنى يا ماما .. غير معقول هذا الذى سمعته .. بعد

كل الذى عملتيه لنا .. هذا جزاء الإخلاص والحب وتضحية المال .. ومن هو طارق حتى يقول إنه يشك فى حساباتك ؟

ـ هـذا هو مصير المـرأة هنا .. ذلك هو مكانها وهذا هو كل مقامها .

ـ ولكن ... لماذا أنتِ .. هل يمكن أن يتكلم عصام عـاشور أو نـور سلامة عن أمهما بهذه اللهجة ..

ـ ربما لا .. لأن الأمهـات هنـاك يـرضين بـأى شىء .. مسكينـة وبتتلقى أى إهانة ، وهُنَّ ينسيْـنَ أنهن بذلك يُفسدنَ الأولاد ـ أما أنا فلا أريد أن أخسر ابنى .. لا أريد أن أدلله وأعـامله على أنه طفل ، طارق الآن رجل وينبغى أن يعامل معاملة رجل ..

ـ ولكنـك بخروجك من هنا ستزيدين تدليله .. ستعملين وتعطينه .

ـ هذا هو الموقف يا سوزان .. سأعمل الآن لنفسى ولك . لن يأخذوا منى شيئاً إلا إذا تغير الوضع هنا .. إنهم الآن يحتقـرون عملى ويركلونه بأقدامهم ـ كنت أقدم لهم عملى سعيدة راضية ، فلم يعجبهم ذلك .. الآن سنرى إن كان عملى هذا له قيمة .

ـ يعنى : ستعملين هناك وتنامين هناك ؟ فى هذه الحالة .

ـ انتظـرى حتى أرى الرجل وأعرف حـدود ذلك العمل .. إنزلى أنتِ الآن وتناولى غداءك .

ـ تعالى معى يا ماما .

ـ أجل سآتى .. قولى لعم إمام يضع الطعام ، وأنا قادمة .

وجلست نادية إلى المائدة تأكل مع ابنتها ، وأثناء الطعام أقبل زوجها ماجد ، وسُـرَّ لأول ما رآها ولكنه ما لبث أن تجهَّم وجهه وقال : ـ ماذا حدث .. ألم يعد أحد ينتظرنى للطعام .

قالت دون تكلف :

ـ انتظرتُك إلى الساعة الثانية والنصف .

ـ ولكنك تعرفين أننى أحياناً أتأخر فى العمل إلى ما بعد ذلك ..

ـ أجل أعرف ذلك ، ولكنى أحسست بالجوع .

ـ هذا شىء جديد ..

ـ الجوع ؟

ـ لا .. عدم انتظارى .

ـ لم يحدث ضرر على أى حال .. هـا نحن على المائدة ، تستطيع أن تغسل يدك وتجلس معنا ..

ـ أمامى ربع ساعة على الأقل لكى أغتسل وآتى ..

ـ نحن فى انتظارك .. لن نترك المائدة قبل أن تأتى .

ـ ثم إننى لا بد أن أنتظر طارق .. إننا ننتظره كل يوم ..

ـ طارق ليست له مواعيد ، وأحياناً يأكل خارج البيت .

ـ هذا لأن الطعام هنا لايعجبه ... وعنده حق ..

ـ هذه المرة سيعجبك ويعجبه ..

ـ لا أظن ...

ومضى إلى غـرفتـه واستمـرت نادية فى طعـامهـا ، وبـدا الضيق والغضب على وجـه ابنتها سـوزان ، فتظاهـرت بأنها لم تلاحظ شيئـاً وقالت :

ـ إيه أخبار الكلية ؟

ـ لا شىء ...

وأقبل طـارق ، وجهـه عابـس . لا يحيى أمه أو أختـه ، ويتجـه إلى التليفون وعم إمام يسأله :

ـ سيدى الدكتور سيتغدى .

ـ أنتَ تعـرف أننى لا أتغدى هنـا .. أكل المدارس هذا لا يعجبنى ولا يعجب أحداً .

وسوزان لا تطيق الصبر فتقول :

ـ تقول هذا دون أن تعرف ماذا أعددنا .

ـ أعـرف دون أن أرى ... من عشرين سنـة ونحن نأكل على كيف ست ماما ... من هنـا وطالع أنا لن آكل هذا الطعـام .. وعلى فكرة أنا غير مقتنع بالكلام الذى قدمته إلينـا ست هانم فى الورق ..

ـ يعنى ماما حَتزَور .

ـ لا أعرف ... إسأليها ... إنها بجوارك .

ـ ولماذا لا تسألها أنت ؟

ـ بعد ما قالته لنا أول أمس ليس لى معها كلام ...

ويأتى الأب ويقول :

ـ ماذا جرى يا طارق ... زعلان ليه ؟

ـ ست سوزان بتدافع عن ست ماما ...

ويتصنع الأب الطيبة ويقول :

ـ لا داعى للمناقشـة والدفاع ... نادية لازم راجعت نفسها وعرفت خطأها ، وبإذن الله كل شىء يسير على ما تريد ..

وتقول نادية بهدوء :

ـ أى خطأ ؟ !

ـ قصدى .. أننا حتى لو كنا معذورين لازم نشوف ابننا عاوز إيه ..

ويقول طارق :

ـ مش معذوريـن ولا حاجة .. ده كلام لا يصدقـه أحد .. أنت وكيل وزارة وتكسب مئات ، وكلـه تأخذه ماما .. أين يذهب ذلك كله؟

وتقول سوزان :

ـ لقد رأيت بنفسك أين يذهب ذلك كله .

ـ كلام فارغ .

وتقول نادية :

ـ هل راجعته لتقول إنه كلام فارغ .

ـ لست فى حاجة إلى مراجعـة .. أنا طالب طب ولى مخ وأفهم .. ماما عندها الفلوس .. ولكنها تريد أن تُؤدِّبنا .

ويقول الأب :

ـ لا داعى لهذا الكلام يا طارق ..

ـ لماذا لا داعى .. ألم تقل لى أمس إنك تعطى مـاما كل ما يصل إليك من مكافآت وزيادات ٥٠٠ جنيه فى الشهر على الأقل ؟

ويحرج الأب ويقول :

ـ أيوه يا طارق .. لكن مش كده .

وتقول نادية :

ـ إنت قلت لطارق إنك تعطـــينى ٥٠٠ جنيه فى الشهر على الأقل ؟

ـ ليس بالضبط .. لكن لا يصح أن نتناقش بهذه الطريقة .

ـ إذا كنت أنت تقـول لطارق إنك تعطينى هذا المبلغ كل شهـر ، فلا داعى لأى مناقشة . أنت تعرف أن ما قلتُه هو الحق .

ـ قل ما تريد .. فى بعض الأحيان يكون الكلام نفسه إهانة ..

ـ سيبك منها يا بابا ... هذه أشياء أنا أعرفها .. الحكاية كلها أنها لا تريد أن تساعد فى ثمن السيارة ..

ولا تُلقى نادية بالاً إلى ما قال ابنها ، وإنما تقول لزوجها :

ـ إذا حدث ولم أكن أنـا هنا يوماً لأى سبب فَقُمْ أنـت بالإنفاق على البيت وإيرادك والحمد لله يكفى .

ـ ويكفى أيضاً لشراء سيارتى ...

وتقول الأم فى هدوء وهى تنهض وتتجه إلى غرفتها :

ـ ربنا يسمع منك ...

ونهضت إلى غرفتها ، وبعد دقيقة لحقت بها سوزان وقالت :

ـ عندك حق يا ماما ...

ـ رأيت وسمعت بنفسك ؟

ـ أنا أيضاً لا بد أن أذهب .

ـ لا يا سوزان ، لن تخرجى من بيتك إلا بعد أن تتخرجى ويكون لك عمل وتعتمدين على نفسك ...

ـ ولكنى لا أستطيع البقاء هنا ...

ـ تستطيعين ... هذا بيتك ، وهنا أبوك وإخواتك ، ولا دخل لك بهذا .

ـ بل لى دخل .

ـ نعم لك دخل ، ولكن ليس الآن .. هذه الأسرة تجتاز الآن تجربة قاسية وأنا أتحملها لأنها تجربتى ، وليس من الممكن أن تسير أمور أسرة سليمة بهذه الطريقة ، الأبناء يظنون أنهم سادة الأسرة ، وكل شىء ينبغى أن يكون فى خدمتهم ، وكل مَنْ فيه لا بد أن ينحنى لهم ، والأب فقد توازنه أمام أولاده فلم يجد إلا الأم يضع عليها الحِمْل كله ، تصوَّرى أنه لا يعطينى إلا نصف إيراده الحقيقى ويزعم لابنه أنه لايستبقى لنفسه شيئاً .

ـ يكذب عليه ...

ـ أظن أنه لا يدرى أنه يكذب ، إنه يكذب على نفسه أولاً وما دام

الإنسان قادراً على أن يكذب على نفسه فقد ضاع معنى الصدق والكذب منه ..

ـ وماذا ستعملين أنت؟

ـ علىّ أن أعود بأسرتى إلى الطريق السليم .

ـ ستظلين معنا إذن ...

ـ لا .. لن أظل .. فسأدعها وحدها لتسير إلى آخر الطريق ، عندما تصل إلى النهاية وتنظر فلا ترى أمامها إلا الهاوية ستعود .. هنا سأعود أنا أيضاً ... إذهبى أنت إلى غرفتك الآن ، لا تتدخلى فى شىء ، احتفظى بهدوء أعصابك وراقبى كل شىء .. تعلّمى من التجربة . وسواء أكنت أنا هنا أم فى مكان آخر فإننى سأكون معك دائماً . ستعرفين أين أكون دائماً وستعرفين كيف تتصلين بى ...

ـ وماذا ستفعلين؟

ـ سأعمل ... هل هناك طريق للحياة المعقولة إلا العمل .. اذهبى أنت إلى غرفتك ولا تخافى شيئاً ، أنت هنا مع والدك وهو رجل طيب ولكنه لم يَعُدْ يرى الطريق .. إنه أب عطوف كريم فلا تخافى شيئاً ... إننى ذاهبة الآن .. عندى موعد مع أمينة زهدى .

ـ إذن فستعودين إلى العمل فى السفارات .

ـ نعم .. شىء شبه ذلك ..

ـ عندك حق .. الإنسان لا ينبغى أن يدع مصيره بيد غيره ..

ـ وخصوصاً المرأة .. اذهبى الآن .. سأخرج بعد قليل .

ـ وستعودين ..

ـ نعم سأعود .. سأحكى لك كل شىء عندما أعود ..

* * *

وتُعِدُّ نـادية هـانم نفسها للخـروج ، ثم تنظر فى سـاعتها وتخرج وتهبط السلم إلى الـدور الأول من الڤيـلا . تجد زوجهـا جـالسـاً يقـرأ الجريدة فيقول :

ـ خارجة ؟

ـ نعم . ذاهبة إلى أمينة ..

وينهض الزوج ويقترب منها ويقول فى شبه الهمس :

ـ انظـرى إذا كنت تستطيعين أن تقترضـى منها شيئاً ... أنـا أعرف أنه ليس بينك وبينها تكليف .

ـ ولماذا أقترض ..

ـ يعنى .. للبيت ، ثم لا بد أن نسـاعد طارق على شراء السيارة .. لا نستطيع إغضاب الولد .

ـ إنه ليس ولداً يا ماجد .. إنه رجل .. والرجل لا يرضـى أن تستدين أمه لكى تشترى له سيارة ..

ـ يا نـادية لا داعى للعناد .. خليها ماشية .. طـارق بقى عليه ثلاث سنوات ثم يصبح طبيباً ويرد لنا بدل الجنيه جنيهات .

ـ لماذا تكذب يا ماجد ؟

ـ أنا أكذب ؟

ـ هل أنت تعطينى كل إيرادك ... هل أنت تعطينى أكثر مما هو مبين فى هذه الأوراق ..

ـ يـا نادية لا تدققى فى الأمر .. هـذا بيت وليست إدارة .. يا نـادية هؤلاء أولادنا ... نحن نعطيهم الآن ويردون غداً .

ـ ومن قال لك أننى أربى أولادى لأننى أريد منهم شيئاً ..

ـ كـل الدنيا على كده ... الأولاد عندما يكبرون ويكسبون لا ينسون الأب والأم ..

أنت تعـرف أننـى لا أنتظـر من أولادى شيئـاً .. أنـا أربيهم لكى يصبحوا رجالاً ونساء ويقـومون بشق طريقهم بأنفسهم .. كل غرضى أن يقفوا على أقدامهم فى الحياة .. أما أنا فسأعيش دائماً على ما عندى .

ـ يعنى لا تريدين أن تفهمينى أبداً ؟ !

ـ وأنت ألا تحاول أن تفهم نفسك أبداً ..

ـ أنا الآن أطلب منك معاونة طارق ..

ـ وأنا أعاونه بحسب ما أرى ...

ويُفتَح باب غرفة طارق ويخرج منها ويقول :

ـ دَعْها ياأبى .. أنا لا أريد منها شيئاً .. أنت ستشترى لى السيارة .. إنها لا تهتم إلا بنفسهـــا .. هذه ليست أمّـاً .. لم أرَ فى حياتى أُمّـاً مثل هذه ..

وتصلح نادية هيأتها وتخرج ...

* * *

[٤]

وصلت السيدة نادية إلى دار صديقتها أمينة زهدى فى دقائق لأنهما يسكنان فى شارع واحد والباب قرب الباب . وكانت أمينة تنتظر صاحبتها خلف زجاج الشرفة المطلة على حديقة دارها الأنيقة . إنها تعيش هنا مع زوجها المهندس المقاول إسماعيل حمدى . كانا يعيشان هنا وحدهما ، فقد رزقهما الله بعد فترة عقم طويلة ولداً واحداً ذهب لدراسة الهندسة فى الولايات المتحدة ليعود ويحمل مسئوليات أبيه ، ولكنه لم يَعُدْ لأن الحياة هناك أعجبته ، وكان هذا لا يُغضب أمينة وكانت تقول :

ـ ولماذا يعود ؟ لكى يحمل عبئاً من المتاعب يتزايد يومًا بعد يوم . إن أباه إسماعيل يقوم بأسهل المقاولات فى مصر ، إنه ينفذ مقاولات الشركات الأجنبية ومع ذلك فلا يتصور أحدٌ متاعبه مع العمال والأسطوات . لو كان فى استطاعتنا أن نستورد عمالاً وأسطوات من أوروبا لفعلنا ، فهذا أسهل وأرخص . صحيح أن العامل فى أوروبا يتقاضى أكثر ولكنه على الأقل يعمل ما يُكلَّف به ، أما عمالنا اليوم فعملهم الرئيسى الحصول على المال ، أما ما سيؤدونه فى مقابل ذلك المال فأمر لا يهم وليست لنا أى سلطة عليهم .

وتقول نادية :

ـ دعينا من ذلك الآن .. أريد أن تقولى شيئاً عن هذا العمل وعن دار الضيافة والمستر ادواردز ...

ـ تـريدين الحق ؟ أنا لا أعـرف أكثر من أنهم يريـدون هاوس كيبر للبيت ، وقـد رشحتُكِ لهم لأننى أعرف أنك تحسنين القيـام بهذا العمل وأى عمل آخر . لا يوجد فى الدنيا إلا نادية واحدة ..

ثم نظرت فى ساعتها وقالت :

ـ المشوار من هنا لهناك يستغرق نصف ساعة وعندنا ربع ساعة ـ الآن قولى لى : ما الذى حدث وغيَّر رأيك .. إننى لا أصدق نفسى.

وكانت أمينة أعـزَّ صديقات نادية ، فهما معاً من سنـوات الدراسة وتخرجا معاً وبـدأتا حياتهما العملية فى نفس السفـارة ، ثم تفرقت بهما الطريق ، فأما أمينة فلم تترك عملها أبداً ، لأنها لاتسأل لا فى زوج ولا فى ولد ، وقـد رزقها الله بـزوج على شاكلتهـا ، فإسماعيل حمدى مهندس دقيق فى كل شىء ، وأعمالـه تستغرق يومـه كله ، وهـو لا يتلاقى مع زوجتـه ويعيشـان معـاً فعـلاً إلا فى الليل ، لأن إسماعيل لا يفـرغ من أشغاله إلا بعد الثامنة مساء ، ولكنـه لا يأخذ معه ورقة واحدة إلى بيته . إنه يترك العمل وكل مشاغله على عتبة المكتـب ليسعد مع زوجته ، وكانا لا يعتـادان أن يخرجـا فى الليل مخافة أن يطلبهما ابنهما من أمـريكـا ، وكانت أسعد لحظـات حياتهما عندما يسمعـان صوت ابنهما من بعيد . وكانت أمينة تقول :

ـ هكذا أحب الأولاد .. من بعيـد لبعيد ، وليس بينى وبينهم إلا خط تليفون.

وكانت نادية تتعجب من أمر صـاحبتها وتنكره ، ولكنها الآن تقول لها :

ـ عندك حق يا أمينة ، الآن أنا أفهمك .

قلت لك هذا ألف مرة . إننى أفهم الدنيا أكثر منك .. إننا جميعاً نسىء تربية أولادنا فنجعل أنفسنا خدماً لهم مع أن واجبنا حيالهم محدد : أن نربيهم على قدر ما نستطيع ثم نضعهم فى أول طريق الحياة وبعد ذلك ليس لهم عندنا شىء ولا لنا عندهم شىء ... ما عدا ذلك سوء تربية ونحن مسئولون عنها ... عندى هنا فى الحديقة قطة ، وهى تفهم فى الأمومة أكثر مما نفهم نحن . إنها ترضع أولادها حتى يستطيعوا الجرى ثم تتركهم وتنساهم ، ولو اقترب واحد منهم منها بعد ذلك ضربته لأنها لو تركته لظل يرضع إلى الأبد ...

كنت أعرف ذلك دائماً ، ولكنى أرى الظروف الصعبة التى يعيش فيها الأولاد اليوم ... إنهم مئات الألوف يا أمينة يتسابقون على فرص حياة قليلة جداً .. فإذا كنا نستطيع أن نساعدهم بشىء فلماذا لا نفعل ؟

ـ يا نادية يا حبيبتى ، لقد تركتِ عملكِ . وانقطعت لزوجك وأولادك ، فماذا فعلوا هم ؟ سعادة البيه يعطيك أقل من نصف إيراده ويخفى الباقى . كلهم يفعلون ذلك ويرَوْن أنه حق لهم ، وربما كان ماجد أحسن من غيره لأنه على الأقل لا يلعب بذيله .. ومع ذلك فمن أين تعرفين أنه لا يلعب . الرجل منهم إذا خرج من البيت لا تعرف امرأته شيئاً مما يعمل أما هو فيفرض عليها ألا تخرج مجرد خروج إلا بإذنه ..

ـ وزوجك إسماعيل .. ألا يلعب بذيله ؟

ـ من يدرى ياحبيبتى ... ما دام الرجل له ذيل فلا أحد يعرف ماذا

يصنع به ، ومع ذلك فصدِّقيني إن ذلك لا يهمني الآن . كنت أهتم به وأنا صغيرة ، أما الآن فعندى بيتى ووظيفتى وابنى على الطرف الآخر من خط التليفون .

وتنظر نادية فى ساعتها وتقول :

ـ يا دوبك !

ـ كاد الحديث يشغلنى ...

* * *

ووصلت الصديقتان إلى دار الضيافة فى سيارة أمينة . وارتاحت نادية لمنظر البيت . إنه دار عظيمة أنيقة من عشرة طوابق ، وفى مدخلها حديقة صغيرة . وصعدتا إلى غرفة المدير فى الدور الخامس . كان فى انتظارهما . إنه رجل أمريكى طويل وسيم أشقر مكتمل الشعر فى خمسينات عمره الأولى ، استقبل نادية وصاحبتها حَفِيًّا ، وعرض عليهما شراباً فاعتذرتا ، وطلبت نادية فنجاناً من الشاي ، وقال المستر ادواردز :

ـ أرى أنك تتكلمين الإنجليزية بطلاقة ...

ـ درستُها وعملتُ فى السفارات نحو عشر سنوات .

وقالت أمينة :

ـ وعملتْ معى فى السفارة أربع سنوات .

ـ ولماذا تركتِ العمل ؟

ـ أردت التفرغ لأولادى .. كانوا صغاراً ...

ـ والآن ...

ـ الحمد لله ، لم يعودوا بحاجة إلىّ .

ـ أى أنك تستطيعين أن تعطى عملنا وقتاً كافياً ..

ـ كل ما يتطلبه العمل .

ـ لقد اطلعتُ على ملف خدمتك فى السفارة ... إنه من أصغر الملفات ، الملف الصغير ينبىء عن موظف جيد ...

ـ هذا يرجع إلى أننى عملت فى السفارة أربع سنوات فقط .

ـ ربما ... ولكن خبرتى الطويلة بالإدارة تجعلنى أعرف الموظف من نظرة سريعة على ملف أوراقه ... المهم ، سنرى !

ـ هـذا أحسن ..لأننى أظن أننى الآن أحسن بكثير مما كنت حينئذ ..

ـ هذا طبيعى ... ولعلك لم تنسى شئون الإدارة ...

ـ إننى أدير بيتى كما تدار أى إدارة ... كل شىء عندى مُدوَّن..

ـ حسناً .. أنا سعيد أننـا وُفِّقْنَا إليك ، الفضل فى ذلك يرجع للسيدة أمينة زهـدى .. سأتفق معك على الأساسيات وأترك تفـاصيل إجراءات التعيين للمستر زكى هنا .. إنه إدارى كفء منتـدب من السفارة ... أبوه أيضاً كان يعمل معنا .

وتقول أمينة :

ـ إنـه ابن حسن أفندى وصفى مدير المستخـدمين فى السفارة .. ألا تذكرينه ؟

ـ طبعاً ... هل لا زال يعمل فى السفارة ؟

ـ لا ، بلغ سن المعاش وأخذه السفير فى داره ليتولى له شئونه الخاصة وكذلك شئون البيت .

قالت نادية : جميل منكم أن تهتموا برجالكم .

ـ علَّمتنا التجارب ألا نأخذ الرجال من الشارع قط ، والشهادات لا تعنى شيئاً ، تستطيع أن تُعلِّم إنساناً الحسابات وإمساك الدفاتر ، ولكنك لا تستطيع تعليمه الأمانة واحترام النفس ... لهذا رحبت بكِ لأنك من أسرة كريمة ومن أسرتنا . والمسئولية هنا كبيرة لا تنهض بها إلا سيدة تربَّتْ على الاحترام فى بيتها ... رشحوا لنا سيدة يونانية ، إنها تعمل فى أحد الفنادق والشهادات فيها طيبة ، ولكن والدها حلاق فى الفندق وكذلك زوجها .

ثم هزَّ رأسه وقال :

ـ هذا لا يعجبنى ..

وبعد لحظة قال :

ـ أريد أن أعرف ... هل تستطيعين المبيت هنا ؟

ـ هذا ضرورى ..؟

ـ لا ، ليس ضرورياً ، ولكنى فى حاجة إلى شخص مسئول هنا بالليل ... هنا ينزل رجال محترمون جداً ولا نريدهم أن يتعاملوا إلا مع مسئولين على مستوى . لهذا أنا أبيت هنا ، لأن مستر زكى لا يستطيع المبيت .. وقد تعبتُ من المبيت خارج بيتى ، وتعبتُ من هذه المسئولية ..

ـ إذا كـان الأمر كذلك فأنا أستطيع المبيت ... أسرتى لم تَعُدْ بحاجة مستمرة إلىّ .. الأولاد كبار الآن ويستطيعون العناية بأنفسهم .

ـ وأنـــتِ تستطيعين رؤيتهم فى أوقات فراغك .. يمكنك تـرتيب هذا الموضوع مع مستر زكى ..

ـ وهل مستر زكى هو رئيس هذا البيت؟

ـ قطعاً لا .. أنت ستكونين رئيسة كل شىء فى هذا البيت ، ستكونين مسئولة أمامى فقط ، وأنا ممثـل السفارة فى هذه المسئولية ، وزكى وكل من معه سيكـونون مرؤوسين لك .. هـذا البيت كله سيكون مسئـولية وأمـانـة بين يديك ، ولا تخافى هـذه المسئـوليـة فإن مستر زكى يليكِ فى المسئولية ، وهو رجل مضبوط .. لقد أعددت لك عقد العمل ووقّعتُه .. لم أحسب أتعـاب مبيتك . على أى حـال ، لك مسكن جميل جـداً هنـا ، إنها شقة لا بأس بها فى نفس هذا الدور ... هنا سيكون مكتبك وعلى خطوات منزلك .. متى تستطيعين أن تبدأى العمل ؟

ـ من صباح الغد ..

ـ ممتاز .. ستجدين الشقة جـاهزة .. سأحزم متاعى من الليلة ، لا أدرى كيف أشكـرك .. انظـرى فى العقـد قبل أن تـوقعيـه .. سأتكلم فى التليفون حتى تقـرأيه .. أضيفى إلى المرتب ثلثـه فى مقابل العمل الليلى ، وللبيت ثـــلاث سيـارات .. هـذه أيضـــاً مسئـوليتك. . واحـــدة منهـا لاستعمالك.

وطلب رقماً فى التليفـون ومضى يتكلم ومَضـتْ هى تقـرأ العقـد ،

بحثت بسرعة عن المرتب وابتسمت حين رأته ، بسرعة أضافت إليه الثلث وزادت ابتسامتها اتساعاً . أمينة أيضاً كانت تقرأ العقد معها وقرأت الرقم وقالت هامسة : وقِّعِى العقد قبل أن يُغيِّر رأيه ، وقِّعيهِ ثم خذى نسختك واقرأيها فى البيت .

وفرغ المستر ادواردز من مكالمته فقالت :

ـ هل أستطيع أن آخذ نسختى من العقد لأقرأها فى البيت؟

ـ وَقِّعى الآن أفضل ..

ـ وقَّعْتُ !

ـ حسناً ... سأعمل لك نسخة بالتصوير لتقرأيها فى البيت ، هاتان النسختان ينبغى أن تسجلا وتختما فى السفارة حتى يعملوا حساب المرتب . مرتبك يحسب من الغد .. غداً صباحاً تمرين علينا فى السفارة لكى تتمى الإجراءات ونعمل لك بطاقة .. لا داعى لمسوغات تعيين فإن لك ملفاً قديماً عندنا .. ستجدين كل شىء جاهزاً فى السفارة حوالى العاشرة صباحاً ، أريد أن أقدمك للسفير ، ثم تعودين إلى هنا وتبدأين عملك .

* * *

وصلت نادية إلى دار الضيافة وتسلَّمتْ عملها وجلستْ فى غرفتها تنتظر زكى أفندى راغب أو المستر راغب كما يسمونه ، وظيفته مدير الشئون المالية والإدارية فى الدار ، ولكنه فى الحقيقة مدير كل شىء هنا بعد نادية . فى العقد قرأت أنها مدير البيت [هاوس مانيدجر] لا

مدبـرة البيت [هاوس كيبر] سرًّها ذلـك ووجدت فيه دليل تقـدير ، لم تصدق نفسـها . هذا المكتب أجمل وأفخر مكتب رأته فى حياتها بعد مكتب السفير الذى كـانت عنده من سـاعة ، لقـد أعطوه صـورة تبين الأهمية التى يعلقونها على صاحب هـذا المكتب . مكتب زوجها فى الوزارة يختلف عن هـذا ، مكتب زوجها فى الـوزارة يعبر عن الأهمية التى يـراها هـو فى نفسـه . لكى يشعر أنـه وكيل وزارة طلب أن يضعـوا له جهـاز تكييف ومنضدة اجتماعـات عليها جوخ أخضر وثلاثـة تليفونات ، واحـد منها مباشر مع الوزير . هذا التليفون لا يعمل أبداً ، ومن يوم أن أصبح وكيل وزارة مساعد لا هو طلب الوزير مرة ولا الوزير طلبه مرة ، ولماذا يحدث هذا أو ذاك ؟ الـوزير هـو الآخر عنده تليفـون مباشر مع رئيس الـدولة ولكنه أيضاً صـامت . لم يحدث مرة واحدة أن طلبه رئيس الـدولة ومن المستحيل أن يطلبه هو . ولماذا ؟

فى غرفتها تليفون واحد لكل شىء . إنه جهاز أوتوماتيكى لا يحتاج إلى أن يتدخل فى شئـونه عامل سـويتش يمسك بالجهاز فى يـد وبقرص الطعمية فى الأخـرى ، وهو لا يجد أى فرق بين الطعميـة وما يسمـونه بالتكنولوجيا .

وأتى المستر زكى سلَّمهـا نسخـة من كـل مفـاتيح البيت : مكتبهـا ومسكنهـا وبـاب البيت وبـاب الحديقـة ومخزن التمـوين والمطبخ والأوفيس وغـرفة التكييف المركـزى وغرفـة الطعام ومفتـاح السيارة ، تسلمت كل شىء إلا مفتاح الخزينة . هذا رأتْ أن يظل دائماً فى يد المستر زكى ، طـافت بـالبيت وقـابلت كل النـاس فى مـواقعهم ، تعجبتْ أن كل

الموظفين والعمال فى مواقعهم وعلى استعداد للعمل . النظافة قاموا بها على نحو طيب جداً ، تساءلت : لماذا : لماذا يعمل المصرى دائماً أحسن إذا كان رئيسه أجنبياً . لأنهم يدفعون أكثر ؟ ربما . ولكن العمال والشغالين يأخذون اليوم منا كل ما يريدون ومع ذلك فإن عملهم دون المستوى . هنا تذكرت ما قاله لها المستر ادواردز : إنها تستطيع أن توقِّع العقوبة التى تراها على أى مخطىء تحت يدها . والعقوبة هنا سريعة ، العامل لا يستطيع الشكوى لأن أكبر جزء من راتبه إضافيات وحوافز خارجة عن المرتب الأصلى ، ويمكن إيقافها فى أى وقت .هو الخوف إذن. الناس فى الدنيا كلها لايعملون عملاً كاملاً إلا إذا خافوا . هناك من يعملون لأنهم يخافون من أنفسهم . هؤلاء يمنعهم الحياء من الإهمال والكسل والباقى يخافون عقاب الآخرين ، ما أقل الذين عندهم حياء ! هنا ابتسمت فقد عرفتْ لماذا تصرفَتْ على هذا النحو . لقد أحست أن الحياء لم يعد موجوداً فى البيت ، زوجها وابنها فقدا الحياء ، لا يستطيع إنسان عنده حياء أن يعيش مع ناس ليس عندهم حياء ، إنها هنا لتعيد الشعور بالحياء فى بيتها . عندما يعود الحياء تعود هى معه .

شكا لها مستر زكى من أن كهربائى البيت لا يأتى فى موعده قط ، وعمله غير دقيق . تذكرت أن ثلاثة من مصابيح السلالم محترقة وأن أربع غرف تشكو من خلل فى النور ، وفى الممر بين غرفة التموين والأوفيس مصباحان محترقان . هنا لقيت الكهربائى . حيًّا «ست هانم» والسيجارة فى فمه . قالت :

ـ أوسطى خميس ، لماذا لم تغير المصابيح هنا ؟

ـ حاضر يا مدام .

ـ أقول لك لماذا لم تغيرها ؟

ـ لم أرَهَا إلا الساعة .

وقال المستر زكى : لا يا خميس لقد نبهتُكَ ثلاث مرات .

فقال الأسطى خميس : يامستر زكى وحياتك تبعد عنى .

ـ ولماذا يبتعد عنك ؟ ألست مرؤوساً له ؟ لماذا لا تنفذ أوامره . هناك مصابيح كثيرة محترقة فى هذا البيت وغرفتان تطلبان إصلاحات كهربائية من ثلاثة أيام .

ـ ياست هانم إحنا بنعمل اللى بنقدر عليه ، بنعمل اللى يرضى ربنا .

ـ نعم ، الذى يرضى ربنا ويرضى المستر زكى ويرضينى .

ـ يعنى إيه يا مدام .

ـ يعنى أنت مهمل وغير مواظب ، وعندما تُكلِّمنى تنزع السيجارة من فمك .

ـ يعنى هى عسكرية ولا إيه؟

ـ أيوه عسكرية ، العسكرية نظام وأداء واجب وطاعة ..

ـ شوفى يا ست هانم .

ـ أنا مش ست هانم أنا الريسة .

ـ شوفى يا ست الريسة ، أنتِ لك علينا العمل ، أما حساب الوقت بالدقيقة والثانية فهذا لا لزوم له .

ـ أنت الذى تقول : له لزوم أو ليس لـه لزوم ؟ أنت هنا لكى تنفذ ما أقول.

ـ إذن هو تحكُّم .

والتفتت نادية إلى زكى وقالت :

ـ زكى ، منذ متى يعمل معنا الأوسطى خميس ؟

ـ آخر الشهر تنتهى فترة الاختبار ثلاثة شهور .

ـ إذن أحضر لى ملفه فى غرفتى بعد المرور .

ثم تلفتت إلى من حولها وتقول :

ـ المرور انتهى اليوم . غداً فى الساعة العاشرة صباحاً يكون المرور ، أريد أن أجد كل شىء كاملاً ونظيفاً . لا نقطة ماء على الأرض . لا صنبور تالف . لا ذرة غبار على شىء أو تحته . من غد هناك مرور فى الصباح وتفتيش بعد الظهر .

وفى غرفتها يجلس أمامها زكى وتقول له :

ـ من الآن يكون عندك ثلاثة دفاتر : دفتر مرور ، ودفتر تفتيش ، لأدوِّن كل الملاحظات التى نلاحظها ونسجِّل العقوبات التى نُوقِّعها .

ـ والدفتر الثالث .

أوامر العقوبات . من أصل وصورة من فضلك ، الأصل يبقى عندنا والصورة تُعطَى لمن نُوقِّع عليه العقوبة والتنفيذ فورى ، والخصم يكون من أول مرتب .

ـ والأوسطى خميس .

ـ أكتب فى دفتر العقوبات قراراً بفصل الأوسطى خميس إبراهيم . أعطه بقية حسابه واصرفه اليوم . لا أريد أن أراه هنا .

ـ إذا كنت وقَّعتِ هذه العقوبة على خميس فأعتقد أن تهامى سائق الميكروباس يستحق أكثر . إنه يتأخر دائماً على الناس ، وإذا ذهب إلى مشوار فإنه لايعود إلا بعد ساعتين .

ـ كم له فى العمل هنا ؟

ـ سنتان تقريباً .

ـ وما أقصى العقوبة التى نستطيع توقيعها عليه ؟

ـ الفصل طبعاً .

ـ لا لزوم للفصل ، يكفى واحد فى أول يوم .

ـ إذن عندنا الإيقاف عن العمل ثم الخصم من المرتب الإضافى أو الأصلى .

ـ الأصلى هو الذى يستحقه بحسب لوائح العمل ، والإضافى هى الزيادات من عندنا ، وهى ثلاثة أضعاف المرتب الأصلى .

ـ إذن هاخصم له أسبوعاً من الإضافيات . اكتب لى قرارات العقوبات مُفصَّلة ، أو تأتينى بها فى الدفتر من أصل وصورة .

ـ الحقيقة أن قرارات العقوبات تُعمل من أصل وصورتين .

ـ آه فهمت ، الثالثة تُحفظ فى ملف الموظف .. عندك حق . الآن نمرُّ

على المطبخ والمطعم لتُطمئنّى على كل شىء ، ثم تأتينى بقرارات العقوبات لأوقّعها . سأذهب الآن إلى سكنى هنا لأرتب أمورى . اتصل بى هناك إذا طلبنى أحد وخصوصاً المستر ادواردز والسفارة .

* * *

وأَوتْ إلى شقتها الصغيرة . وجدت هناك كمريرة تسمى أنيسة . إنها المسئولة عن تلك الشقة الخاصة ، المستر ادواردز هو الذى اختارها إنها سيدة فى أربعيناتها الأولى ، حسنة الشكل ولكنها لا تعتنى بمظهرها .

تقول لها نادية :

ـ هل تخسرين شيئاً إذا أنت اعتنيْتِ بنفسك ...

ـ العمل كثير ياسيدتى ، وأنا أفرغ من هنا الساعة الثانية بعد الظهر.

ـ الواحدة ..

ـ نعم ، ولكنى أتغدى هنا ...

ـ تحسبى وقت الطعام وقت عمل .

وبعد لحظة صمت

ـ سعيدة أنت فى زواجك يا أنيسة ؟

ـ بصراحة .. لا يا سيدتى .

ـ زوجك ؟

ـ زوجى والولد والبنت .

ـ تشقين فى سبيلهم ولا يشكرون ...

ـ والله ياسيدتى إنى لا أنتظر الشكر .. لَيْتهُمْ يكفُّون عنى ألسنتهم.

ـ ونقودك ضايعة عليهم أولاً بأول ...

ـ لا أستطيع ادخار شىء .

ـ وزوجك ؟

ـ إنه رجل طيب . وهو يعمل ما يستطيع .

ـ كم مرتبه ؟

ـ لا أعرف ، ولكنه يعطينى كل شهر ١٠٠ جنيه .. أحياناً يعطى أقل.

ـ نفس الحكاية .

ـ ماذا تعنين ياسيدتى ؟

ـ أقصد أنها نفس حكايتى .. أنا أيضاً كانوا يعاملوننى فى البيت كما يعاملونك ..

ـ أين أنا وأين أنت ياسيدتى .. يقولون أن زوجك وكيل وزارة قَدْ الدنيا ..

ـ وكيل وزارة نعم ، أما قَدْ الدنيا فلا ..

ـ كل نساء مصر على هذه الحال ..

ـ نهايته .. وضَّبْتِ الشقة ..؟

ـ كله تمام يا ست الريسة ..

ـ والحمام والمطبخ .. لا أريد نقطة ماء ولا ذرة تراب .

ـ اطمئنِّى ياسيدتى .

ـ دعينى الآن واذهبى إلى غرفتك .. انتهى من عملك وتعالى .. سنتغدى معاً هنا فى الساعة الواحدة.. سأتصل بالمطبخ وزكى أفندى .

وخرجت أنيسة وبقيَتْ نادية وحدها ، جَالتْ بعدها فى مسكنها الجديد. ما أجمله . قاعة الجلوس هى نفسها قاعة الطعام وبها فيراندا جميلة فيها نباتات خضراء وزهور. كل شىء فى غاية النظافة ،مضت تضع ملابسها فى الأدراج ودولاب الملابس وهى تفكر . قلبها مهموم . للمرة الأولى من ثلاث وعشرين سنة تقيم فى مسكن غير بيتها بعيداً عن زوجها وأولادها.كانت تشعر وكأنها غصن انقطع من أصله ووقع على الأرض . كانت تحب زوجها ، إن ماجد رجل طيب ورؤوف ولكن ما العمل معه . إنه يحبها أيضاً . لم تكن تشكُّ فى ذلك . ولكنه مثل عامة الرجال تعوَّد أن يدوس على المرأة دون أن يدرى ، الجو العام فى بلادنا يفرض هذا الوضع على الزوج والزوجة ، وهو الذى يجعل الأولاد يتصورون أن الأم بالذات خادمة لهم ولا بد أن تقف خاضعة بين أيديهم ، هذا لا يحتمل ولابد من رفضه . ولكن كيف ؟ هل يعقل أنها هذه الليلة ستنام خارج بيتها للمرة الأولى فى حياتها ؟ إنها فى حاجة إلى إنسان تتحدث إليه . تتصل بصديقتها أمينة وتدعوها للغداء معها فى البيت ، تشكو لها الوحدة . أمينة توافق فتبادر نادية وتبلغ أنيسة أنها لن تتغدى معها اليوم . لِندَعْ ذلك إلى الغد ..

حـــوالى الثـانيـــة عشرة والنصف يأتى زكى ، تكلَّم فى التليفـــون فاستدعَتْه وأقبل :

ـ يا ست الـريسة لا تتصـورين الـذى حدث فى البيت بعـد فصل خميس ، الكل يـرتعدون ، الـذين كانـوا قـد فرغـوا من أعمال النظافـة الخاصة بهم عادوا عليها ... شيئاً فشيئاً سيكون البيت كالساعة .

ـ مستر زكى .. من الذى يقوم بشراء حاجيات البيت؟

ـ هناك مُتعهِّدون لكل شىء .. هناك أشياء تأتى من نفسها كل يوم وهناك أشياء نطلبها .

ـ أريـــد أن تأخذ رأيى قبل أن تشترى أى شـــىء ، وأريد أن أحضر استلام الطعام من المتعهدين ... عندنا هنا ميزان ؟

ـ طبعاً يا افندم .

ـ إذن غـــداً سنتسلم كل شىء ، وسنـزِنُ كل شـــىء ، وسنـراجع الأسعار ...

ـ أمرُكِ ياست الريسة .

ـ الساعة الواحدة إلا رُبْعاً سأمرُّ على المطبخ وغرفة الطعام . لا بد أن نراها معاً قبل أن يدخل أحد من الضيوف .

ـ الكثيرون منهم يطلبون الأكل فى غُرَفهِم .

ـ العائلات وحدها لها هذا الحق .. أمـا النزلاء العاديون فالأكل كله فى غرفـة الطعام إلا الإفطـار .. الساعـة الواحدة والنصف ستـأتى هنا صديقتى أمينة هـانم زهدى ، سأتغدَّى معها هنـا .. احسب غداءها كما

تحسب غداء مَنْ يدعوهم النزلاء من الضيوف .

ـ إننا نأخذ جنيهين زيادة على غداء كل ضيف أو عشائه .

ـ هـذا حق . إن إدارة البيت تتحمل جانبـاً من نفقات طعـام النزلاء ولكن الضيوف ينبغى أن يدفعوا الفرق .. هذا يسرى علىّ وعلى غيرى ..

وانصرف زكى وعادت إلى وحـدتها ، كانت تشعـر بوحدة قـاسية ، قلبها كله كان مُعلقاً ببيتها وزوجهـا وابنتها وابنيها . إنها لا تدرى ماذا يحدث الآن هناك ، ولا تريد أن تعرف . لقـد أعطَتْ ابنتها سوزان خطاباً إلى زوجها . سوزان لا تعـرف أين هى ولكنها تستطيع الاتصال بها عن طريـق أمينة . اتفقتْ معهـا على أن تُكلِّمها السـاعة الثـالثة بعـد الظهر لتبلغها بأخبار بيتها وأولادها ، عادت إلى مكتبها لتشعر بكيانها ولتهرب من وحدتها . أمسكت بالتليفون وأصدرت أمراً لزكى . هذه الأوامر كانت تبدد آلام الوحدة والبعد عن الأسرة . إنها تعويض .

فى الموعد المحدد أتت أمينة . إنها كعادتها لطيفة طروب ، قالت وهى داخلة :

ـ يا سلام .. شقة تشرح القلب ..

ـ ولكنى وحيـدة يا أمينة .. أشعـر بوحدة مخيفـة. لا أتصور كيف فعلتُ ذلك .. مَنْ يتصور أننى أهرب من بيتى على هذه الصورة ؟

ـ بدأْتِ تضعُفين ..

أظن أنى ضعيفـة من الأصل .. أخشى ألا أستطيع .. إن حنينى إلى بيتى شديـد .. وسوزان المسكينة كيف ستـواجه الموقف .. وأحمد ، من

يُعنَى به ثم نظرتْ فى ساعتها ومضتْ تقول :

ـ مسكينة سوزان .. تركتُهـا فى مهبِّ العاصفة . عليها بعد قليل أن تعطى خطابى لماجد ... لا أدرى مـاذا سيقول .. لن يصدق أنها لا تدرى ما فى الخطاب ، ولن يصدق أنها لا تدرى أين أنا ..

وأتى السفرجى بالطعام فقالت نادية :

ـ ضع الطعـام كله على البـوفيه ، نحن سـنقوم بخدمـة أنفسنا ، وعندما ننتهى سأناديك لتأخذ الأطباق ..

وضع الطعام فى صمت ، فقالت أمينة .

ـ إذا كنت لا تستطيعين فلماذا أقدمت على ذلك ؟

ـ لم يكن من ذلك مَفَرٌّ .

ـ كنـت تستطيعين العمل فى الصباح وتعودين إلى بيتك بعد الظهر .

ـ فى هذه الحالة أكون قـد زِدْتَ الحالة سوءاً .. سيزيد طمعُهم فىَّ .. لم يكن أمامى إلا هذا الحل ، أريد أن يعرفوا أن عملى له قيمة . لست أريد أن أنتقم منهم أو أثبت أننى أعقل أو أكثـر قيمة . أريـد أن يتعلمَ ماجـد كيف يحترمنى . ذلك ضرورى للبيت . من غير المعقول أن يكذب على ابنه أمامى . من غير المعقول كذلك أن يتصور طارق أننا ننفق عليه لكى يرد لنا ذلك عندمـا يتخرج ويعمل .هذا يجعله يطلب ويطلـب بلا حدود على أسـاس أنـه سيردُّ كل ما أخـذ أضعـافـاً عندمـا يتحـول الأب والأم إلى حُطَامين محتاجين إلى مال الأولاد وإحسان الأولاد .. كـل هـذا خطأ يا أمينة ولا بد أن تصححيه لصالحهم هم أولاً ...

ـ ولكن لا بد أن تدفعى الثمن ..

إننى أدفعه .. أدفعه راضية .إنـه صعب الآن لأن هذه هى البـداية . لا ينبغى أن أفكر فيهم هذا التفكير كله ، لا بـد أن أنساهم وأذكر نفسى فقط . لا تنسى يا أمينة أن تتصلى بسـوزان بالتليفون لتطمئنّى عليها . قـولى لها أننى سأتصل بها السـاعـة الـرابعـة . ستكـون إلى جـانب التـليفون .

* * *

[٥]

فى دار نادية يُـخيِّم السكـون . الساعة قرابة الواحـدة بعد الظهر . غرفة المعيشة ساكنة يخيم عليها صمت عميق ، ماجد جالس على كرسى وثير إلى جانب منضدة صغيرة عليها مصباح وتليفون . إنه يمسك بيده ورقة ينظر إليها بين الحين والحين ثم ينظر فى الفضاء نظر من لا يفهم ، ابنه طـارق يُقبِل إليه من حجـرته ويجـلس على كرسىٍّ قريـب منه ثم يقول :

ـ وماذا سنفعل ؟

ويهزُّ الأب رأسه فى يأسٍ ويقول :

ـ لا أدرى .. لا أدرى .. إننى لا أفهم شيئاً .

ـ ما الذى لا تفهمه .. لقد تركتْنا ومضتْ ..

ـ إلى أين ؟ إلى أين تمضى نادية وتتركنـا ؟ بعد ثلاثٍ وعشرين سنة من الزواج ، وبعد أن أنجبنا ثلاثـة أولاد وأنشأنا هذا البيت تتركنا هكذا وتمضى دون أن تقول حتى إلى أين هى ذاهبة .

ويصلصل جرس الباب ويقول ماجد :

ـ ها هو قد أتى .. أخى الدكتور محمود ..

ـ لماذا أتى فى هذه الساعة ؟

ـ أنا كلَّمته وحكيْتُ له الأمر ، وطلبتُ إليه أن يأتى ..

ـ ولماذا يأتى عمى الدكتور محمود ويتدخل فى شئوننا ؟ ألا تعلم ما بين ماما وزوجته إحسان هانم .

ـ إننى غرقان يا طارق .. غرقان يبحث عن أى شىء يساعده على النجاة ..إننى لا أستطيع التفكير .. هل تستطيع أنت ؟

وينهض ماجد ويفتح الباب ، الدكتور محمود الذى يدخل الآن طبيب فوق سن الخمسين بقليل ، إنه رجل جادٌّ حسَنُ الهيئة ، إنه طبيب أمراض نساء .. يحيى أخاه وابن أخيه ثم يقول :

ـ إيه .. ؟ جرى إيه ؟

ـ خذ يا سى محمود اقرأ الخطاب الذى تركته لنا الست .. اقرأ بصوت عال لعلنا نفهم معاً شيئاً .

محمود يتناول الخطاب وينظر فيه ، ثم يضع النظارة على عينيه ويقول :

ـ اطلب لى قهوة والله يا ماجد ، لقد أتيت من العيادة الآن . ما كدتُ أصل حتى أتانى تليفونك .. أكلْتُ فى دقائق ثم أخذت سيارتى وأتيت .

وينظر طارق إلى عمه نظرة احترام عميق ، إنه يحسُّ أنه طبيب مثله ويرجو أن ينجح نجاحه لأن الدكتور محمود من أنجح أطباء أمراض النساء فى مصر ، ويأتى عم إمام بالقهوةويقول :

ـ سعادة البيه ؟ عاوزين حاجة قبل أن أمشى ..

ـ ابْقَ معنا اليوم يا عم إمام ..

ـ تأخرتُ ، الساعـة الآن الثالثة .. أولادى يقلقون علىّ ... إذا كنتم لا تريدون شيئاً الآن مضيت وأعود من صباح الغد .

ـ عندنا عشاء ...

ـ أيوه يا افندم .. الست أعدَّتْ طعام ثلاثة أيام ووضعتْه فى الثلاجة قبل أن تمضى .

ـ ومتى عملت ذلك كله ؟

ـ قالت لى أنها صحَتْ من الثالثة بعد منتصف الليل .. عندما أتيت فى الثامنة صباحاً كانت قد انتهت من كل شىء وأعطتنى تعليماتها ..

ـ وما هى تعليماتها ؟

ـ قصـــدى بالنسبـة للمطبخ والأكل ، وقد أمـرتْنى بأن أظلَّ معكم مهما حدث .

ـ كتر خيـرها ياسيدى .. ذهبتْ وتركتْ لنا عم إمام مع التعليمات .

فقال الدكتور محمود :

ـ إذا لم تكونوا بحاجة للرجل فَدعُوه يذهب .. نريد أن نتحدث .

وقال طارق :

ـ طـيب اذهب أنت يـاعم إمام .. ستأتى الساعة الثـامنة من صباح الغد ..

ـ بمشيئة الله يا سعادة البيه ـ السلام عليكم ..

ويمضى عم إمام ويغلـق الباب من خلفه ، وينظـر ماجـد إلى أخيه محمود ويقول :

ـ اقرأ الخطاب إذن يا محمود ..

ـ قرأته بسرعة .. لا بد أن أقرأه الآن بتؤدة ..

ـ إذن فاقرأ بصوت عالٍ لكى نستطيع التفكير معاً .

ينظر محمود فى الخطاب ويقول :

ـ لقد كتبتْه بعناية وإتقان .. شأنها فى كل شىء ..

ـ هذا يدل على أنها فكرت فى الأمر طويلاً ...

ـ مؤكد .. تصرف كهذا لا يصدر عن سيدة مثل نادية إلا بعد تفكير طويل ..

ـ إننى أعرف حبها لبيتها وأسرتها ... أنت تعرف أننى أعتبرها من أحسن سيدات مصر ..

ـ نقرأ الخطاب أولاً ...

ـ اقرأ ياسيدى ...

ويُفرِغُ محمود بقية فنجان القهوة ويشرب شيئاً من الماء ، ويُثبِّت النظارة على عينيه ويقرأ :

أعزائى

ما كنت أفكر يوماً أننى سأترك هذا البيت إلا بالموت ، ولكن المعاناة تكون أقسى من الموت أحياناً ، لا أدرى إن كنت على حقٍّ حينما فعلت ، ولكن هذا هو الشىء الوحيد الذى كنت أستطيع عمله . عندما تحسُّ المرأة أنها فقدتْ احترامها فى بيتها لا يبقى أمامها إلا أنْ تستكينَ أو تترك

البيت إذا استطاعت . الكلام الذى سمعته منكم أخيراً وتصرُّف طارق معى وتأييدك له يا ماجد يدل على أنه لم يَبْقَ لى فى هذا البيت ما أعمله . ولم أَعُدْ أستطيع الصبر وأنتم تعرفوننى ، عندما أجد ابنى يشكُّ فى ذمتى لا يبقى للأمومة مكان كبير ، والزوج عندما يكذب لكى يستدِرَّ عطف الابن على الأم يكون ذلك إيذاناً للأم بأن تترك مكانها ، الحمد لله طارق الآن فى المرحلة الأخيرة من دراسته ، وهو رجل ويعرف كيف يسير فى طريقه . وأنت يا ماجد بخير والحمد لله والبيت لا ينقصه شىء، وإذا أنت أنفقتَ على هذا البيت كل إيرادك كما تقول استطعتم أن تسيروا بدونى . لا تخافوا علىّ فأنا بخير ، وأعرف كيف أسير وحدى فى حياتى ما دُمْتُ قد استرجعت كرامتى التى كِدْت أفقدها ، لا تضايقوا سوزان فهى لا تعرف أين أنا . أنا سأتصل بها دائماً لأننى لا أستطيع تركها . إنها الوحيدة هنا التى فهمتنى ، ربما لأنها امرأة مثلى . خذوا بالكم من أحمد . إنه أمانة عندكم وعلى رغمى تركتُه ، بعيداً عن هذا البيت أظن أننى سأعيش لأساعده فيما بعد ، أما إذا كنت بقيت فلا بد أنه كان سيحدث لى شىء وأتركه بلا أمل . كان عندى ١٨٢ جنيه هى كل ما تبقَّى لى من ادخار العمر ، أعطيت سوزان خمسين وأخذت أنا ٣٢ والباقى أتركه لك يا ماجد لتدبر به شئون البيت . لا تنسوا دفع اشتراك النور والتليفون وراتب عم إمام أول الشهر والله يرعاكم ، سأطمئن عليكم من بعيد ، المخلصة نادية .

وينزل الدكتور محمود الخطاب وينظر إلى أخيه مَليًّا ثم يقول :

ـ دى حكاية كبيرة ...

ـ ماذا تقصد ..؟

ـ أقصد أننى أتيتُ أحسب أنها خناقة عادية كالذى يحدث بينى وبين إحسان ، فهى كثيراً ما تغضب وتخرج وتمضى إلى بيت والدتها وتظلُّ أياماً ثم أرضيها وتعود :

ـ ولكن نادية لم تفعل ذلك مرة واحدة ..

ـ لهذا أنا أقول لك إنها حكاية كبيرة وخطيرة حقاً..

ـ يعنى إحسان هانم تغضب وتخرج وتذهب إلى بيت أمها وتعود مرة بعد أخرى ، ونادية من أول مرة تخرج تقوم أنت تقوللى إنها مسألة خطيرة .

ـ هناك فرق كبير بين نادية وإحسان ، إحسان زى ألوف الستات اللائى تراهُنَّ من حولك : يتزوَّجْنَ لكيلا يبقيْنَ عوانس أو لأسباب مالية . أنت تعرف الكفاية عن إحسان وزواجى منها ، زواج ضرورة . لا أدرى لماذا تزوجتها هى بالذات . كان من الممكن أن أتزوج أى بنت أخرى ، وكان من الممكن أن تتزوج هى أى رجل آخر ، وما كان الأمر يختلف كثيراً عن الحالة اليوم . أنا عندى ممرضة تقدَّم لخطبتها اثنان : واحد مرتبه ٩٠ جنيه والثانى مرتبه ٩٥ جنيه . تزوَّجتْ الثانى . تسعون فى المائة من الزيجات من هذا النوع ... لكن نادية لا ، نادية حاجة تانية . كان زواجكما زواج حب وحكاية طويلة أنت تعرفها ، لكى تصنع نادية ما صنعت لا بد أن تكون قد وصلتْ إلى النهاية ... ولم تعُدْ تستطيع أن تحتمل أكثر .. لهذا أنا أقول لك إنها مسألة خطيرة .

فقال ماجد فى لهفة :

ـ ماذا تعنى ؟ نادية لن تعود إلينا .

ـ هذا يتوقف على سبب خروجها .

ـ السبب خناقة بسيطة ... مناقشة عادية .

ومن أعلى السُّلَّم ، من الطابق الثانى تقول سوزان :

ـ لا يا أونكل محمود ... ليست مناقشة عادية أو خناقة بسيطة .

ويقول الدكتور محمود :

ـ سوزان ... لم أكن أعرف أنك هنا ... كيف حالك ياسوزان .. ماذا جرى لكم ؟

وتنزل سوزان السلم وتُسلِّم على عمها ، على وجهها علامات حزن شديد وفى عينيها بقية دموع . تحيى عمها وتجلس ويقول :

ـ خير يا سوزان ... ماذا حدث ؟

ـ الذى حدث أن والدى لم يفهم أمى قط .. ماما يا أونكل كل يوم تنهض من فراشها مع الفجر . الساعة الخامسة والنصف صباحاً تجدها فى المطبخ . تُعِدُّ لنا كل شىء ، عندما يأتى عم إمام الصبح يكون كل شىء جاهز .. كل منا يجد إفطاره على المائدة .. كانت تطبخ بيدها كل شىء ولا تدع إلا أقل شىء لعم إمام ... حتى الشراء من الخارج كانت تقوم به .. وكان عندها ألوف أنفقتْها علينا دون أن تقول شيئاً . كانت سعيدة بذلك .. وفى النهاية والدى قال لها إنه لا يثق فى حساباتها ... اتهمها بالكذب .

ويقول ماجد محتجاً :

ـ أنا لم أَقُلْ ذلك .. طارق هو الذى قاله ..

ـ وأنتَ أيَّدتَهُ ، وأكدَّتَ كـلامه .. كانت تكتب كل شىء تنفقه ، وبقى لها فى النهاية حوالى ١٨٠ جنيه قسمتها بيننا ومضتْ .

ـ وأين هى ؟

ـ لا أدرى .

ـ ولا فكرة عندك ؟

ـ ولا فكرة ... هى رتبت كل شىء بهدوء .. أنت تعرف ماما .

ـ وهل أنت خائفة عليها ؟

ـ طبعاً ... ولكنى كنـت خائفـة عليهـا هنا أكثـر ... إنها لا تتحمل الإهانة .. وسوء المعاملة ..

ويقول ماجد :

ـ مافيش إهانة أو سوء معاملة .. كلها كلمتان قالهما طارق ..

ويقاطعه طارق :

ـ وأنت ألم تَقُلْ شيئاً ...؟

ـ يعنى ... أقلَّ منك بكثير .. المهم إنه كله كلام قيل فى ساعة غضب ، وكلام الغضب لا معنى له ..

وتقول سوزان :

ـ بـالعكس ... ماما تقـول إن الإنسان عندمـا يكون غاضبـاً يقول حقيقة ما فى نفسه ... هذه هى الحقيقة .

ويقول ماجد :

ـ والعمل ؟

ـ لا أدرى ...

ـ أنا أقول ... إننا نبحـــث أين هى ، ثم يذهب طارق ويعتذر لها .

ويقول محمود :

ـ لا أظـن .. ناديـة ليست من الصنف الذى يغضب بكلمة ويرضَى بكلمة . . هـذا الخطاب لا يصدر إلا عن تفكير طويل ... المسكينـة كانت تعانى فى صمت ..

ـ ونحن لا نعانى .

وتقول سوزان :

ـ لا ... لا أنـــت ولا طـارق ، الذى يزعجكـم الآن أنكم تخافون ألا تجدوا من يخدمكم أو يُعنَى بأمركم .

ويقول طارق فى عصبية ..

ـ أنـا لا أفهم لماذا كل هذا الغضب ... لو رأيتم ماذا يفعلـه صاحبى نور سـلامة مع أمه زكية هـانم ... إنه يعاملها معـاملة أقسى من ذلك ، ومع ذلك تحبه ، وبكلمة منه تنسى وتبتسم . وقد اشترت له سيارة ...

ويقول محمود :

ـ نحن الآن ليس أمام حالة زكية هانم .. نحن أمام حالة نادية هانم دى حاجة ، ودى حاجة ..

ويقول طارق :

ـ حاجة تانية إزاى .. ؟ ما الفرق بين نور وبينى .. لماذا تحبه أمه وأمى لا تحبنى؟

ويقول محمود :

ـ الآن فهمت لماذا ذهبت نادية ... إنك ياطارق لم تفهم أمك أبداً ... نادية هانم فعلتْ فى سبيلك أضعاف ما فعلته أية أم أخرى لابنها ... هذه هى الأم التى تعمل فى صمت .. أما الست زكية والست بهية فلهُنَّ طريقة أخرى فى التعبير عن الحب : الدموع ويا حبيبى يابنى ، ويا ضناى يا ابنى.

ويقول ماجد فى ضيق :

ـ اسمع يا أخويا يا محمود .. هذا ليس وقت فلسفة .. هذا الكلام إذا كان فيه نفع لانتفعَتْ به فى بيتك ومع زوجتك .. ولكننا نحن الآن فى مشكلة .. فى أزمة وعاوزين حل ..

ـ رأيى أنا ... الآن لا حل ... لا حل الآن أقصد .. نادية لن تفكر فى العودة الآن ... لقد خرجتْ لهدف .. ولن تعود إلا إذا تحقق لها ما تريد .

ـ وما الذى تريده .. ؟

ـ أعتقد أن الذى تريده هو أن تكون فى بيت يعرف قَدْرها ويفهم تفكيرها ... أنت تريد أن تقارن نادية بزوجتى إحسان ؟ نادية أنفقت آخر مليم عندها فى هذا البيت دون أن تقول شيئاً ، أما إحسان فلا تخرج قرشاً من فلوسها ولو انقلبت الدنيا ـ مثلها مثل زكية وبهية .. كل ما تأخذه منها بكاء أو طول لسان أو طلبات ..

ـ المهم يا محمود .. إن عندنا طالب فى الطب عايز عناية ..

ـ ويعنى إيه طـالب الطب ، وإيه العناية التى تطلبهـا له ؟ أنا طبيب من عشرين سنة وأعرف دراسة الطب ومطالبها ... نحن نعيش فى أوهام يا ماجد ، وهؤلاء الأولاد يبتزوننا .. أنـا عندى كريم فى سنة ثالثة طب .. فهل أتصور أنه يستعبدنى لأنه فى السنة الثالثة فى كلية الطب؟

ويقول طارق :

ـ يا عمى ، أنت تنسى أن كريم سيصبح طبيباً بعد سنتين .

ـ سيكون طبيباً لنفسه . هل تظن أنه سينفق علينا عندما يتخرج ؟

ـ ليس المهم أن ينفق .. المهم أنه سيكون طبيباً ، وسيُشرِّف العائلة .

ـ دَعْكَ من هذا الغـرور ..وإذا أصبح ابنك مدرسـاً أو مهندسـاً أو محامياً ، ألا يُشرِّفـك ذلك ..؟ إننى أعرف نـادية وربما أكثر منـك ـ إنها عزيزة النفس ، وقد أعطتْـكُم كُل ما لديها فلم تجد عندكم تقديراً .

ويضيق صدر طارق بهذا الكلام فيقول :

ـ أى تقدير هذا الـذى تعنيه ياعمى ، إننى أحـب أمى وأحترمها ؟

ـ على طريقتك ، فأنت تتصرف معها وكأنها خادمة لا أم . أنت تأمر وهى تطيع . وهى تعطى وأنت تأخـذ ، وهذا صحيح بـالنسبة لأمهـات كثيرات ممن ينتظرن من أبنائهن شيئـاً بعد أن يفرغوا من دراستهم ... ولكن نادية لا تنتظر منكم شيئاً .. وقد قالتلك أكثر من مرة أمامى إنها لا تنتظـر منك شيئاً بعـد أن تتخـرج . إنها تقوم بـواجبها نحـوك لأنها تحبك ، وخدمتهـا إياك تعبير عن هذا الحب ولكن لا أنت ولا أخى مـاجد فهمتُمَـا ذلك .. وفى كل مناسـبة تقـول لها : انظر ما تفعلـه أم عصام عاشور وأم نور سلامة ! وكم قلت لكم : إن نادية ليست كهذه أو تلك ...

ويقول طارق :

ـ صـدِّقنى يـا عمى إننى لا أفهم .. مـاذا كـان المطلـوب منى : أن أخدمها أنا ، أن أطبخ طعامى وأرتب حجرتى بنفسى .

وتتدخل سوزان :

ـ لا يا سى طارق .. يا دكتور .. كان يكفى أن تحترمها .

ـ وأنا لا أحترم أمى .

ـ طبعاً أنت تحترمها .. ولهذا فقد قلت أنها تُزوِّر الحسابات .

ـ يا سوزان كانت غلطة .. كانت كلمة نطق بها لسانى دون وَعْى.

ويقول الدكتور محمود:

ـ على أى حال .. لقد حـدث ما حدث ، فلننظر كيف نُدبِّر أمرنا ..

ويقول طارق :

ـ خلاص البيت مسئول من سـوزان .. وما دامت متحمسة لماما إلى هذه الدرجة فستحُلُّ محلَّها فى هذا البيت .

وتقول سوزان :

ـ طبعاً .. خادمـة ذهبتْ وتحلُّ أخرى مكانها .. لا يا سى طارق .. أنـا طـالبة فى الجامعـة مثلك .. سأخـدم نفسى وأخى أحمد .. أمـا أنت فتدبر شئونك ..

ثم تنظر إليه طويلاً وتقول :

ـ مافيش فايـدة .. إنكم لن تفهموا المرأة قط .. رغم الدراسة والعلم

لا زالت المرأة عندكم خادمة .. لقد كانت أمنا تعانى ولا أحدَ منكم يحس .

ويقول الدكتور محمود :

ـ اسمع يا أخى ماجد .. نادية خرجت ولا يدرى إلا الله إن كانت ستعود ، امرأة مثلها لا يمكن أن تُقدمَ على هذا التصرف إلا وهى تعلم ماذا ستفعل ، أنا واثق أنها بخير .. فاهتموا أنتم بأنفسكم وبيتكم .

ويقول ماجد :

ـ يعنى أترك نادية تخرج من بيتى وحياتى هكذا دون أن أهتم .. إنها زوجتى وأنا أحبها يا محمود ... إنها حياتى كلها ..

ـ هذا صحيح .. ولكنك نسيته زمناً طويلاً .. أنت تذكره الآن ! أرجو ألا يكون الأوان قد فات ... لا تهتم بموضوع الفلوس .. أنا أخوك ، لا تنسى ذلك .

* * *

فى الساعة الرابعة بعد الظهر تتصل نادية بابنتها سوزان . فى هذا الوقت كان الدكتور محمود قد انصرف وطارق ذهب ليتغدى عند أحد أصدقائه وماجد تناول غَداءَهُ ، وعم إمام قد انصرف .سوزان تتناول سماعة التليفون . لا تكاد تسمع صوت أمها حتى تنفجر باكية . نادية تبكى أيضاً ، وسوزان تقول :

ـ كده يا ماما تسيبينا وتمشى .

ـ تريدين أن أعود إلى الحالة التى كنتُ عليها يا سوزان .

ـ لا يـا مامـا .. هذا مستحيل .. إننا الآن غَـرْقى ، ولكننا كنـا أيضاً غَرْقى وأنتِ هنا ، وأنتِ على حق فى كل ما فعلتيه .

ـ وأحمد .. كيف حال أحمد .. إنه وصيتك يا سوزان .

ـ لقـد قلت له إنك ستعودين بعد أيـام . المسكين بكى كثيراً .. إنه لا يفهم .

ـ كونى إلى جانبه يا سوزان .. إنكِ مكانى بالنسبة له .

ـ وأنت يا ماما .. من أين تتحدثين .. عامله إيه ؟

ـ لا تخافى علىّ يـا سوزان ، أنـا بخير وحالتى الماديـة أحسن بكثير ولكنى أعـانى ربما أكثر من أى واحـد منكم ، إن احتمال الذل والإهـانة مستحيل ... كيف حال طارق ؟

ـ كما هو ... نفس الغرور ..

ـ وماجد .. ؟

ـ إنه مثله .. لم يستوعب بعد ما حـدث .. إنه تايه والدكتور محمود كان هنا .. بابا استدعاه ..

ـ وماذا قال محمود ؟

ـ إنه معك على طول الخط ..

ـ أخذتِ الفلوس ؟

ـ نعم ..

ـ إنها لك ولأحمد .. إعطهِ منها ما يحتاج إليه ..

ـ ولكن يا ماما .. أين أنت؟

ـ يُستحسَنُ ألاَّ تعرفى الآن .. يكفى أن أقول لك أن أحوالى جيدة جداً.

ـ عُدْت إلى العمل ؟

ـ نعم ..

ـ سكرتيرة فى سفارة ؟

ـ حاجة زى كده ..

ـ أين تعيشين ؟

ـ فى شقة جميلة ..

ـ عند طانط أمينة ؟

ـ لا .. فى شقة خاصة بى ..

ـ أعطينى العنوان يا ماما .. لا بد أن أراكِ ..

ـ مش دلوقت .. قريبا جداً ..

ـ إننى أحس وكأننى أموتُ بدونك ..

ـ وأنا أيضـاً يا سوزان .. إننى أموت بعيـداً عنكِ وعن أحمد بالذات ولكن الحرية لها ثمن والكرامة لها ثمن ..

ـ ولكن هذا ثمن غالى جداً يا ماما ..

ـ لا يوجـد حل آخـر يا سـوزان .. لو انتظـرْتُ بعـد الذى حـدث لداسونى بأقدامهم .

ـ عندك حق .. ولكني لا أستطيع يا ماما .. مش قادرة ..

ـ لا بد أن تقدرى .. أرجو أن تساعدينى يا سوزان ... هذا الضعف يزيد عذابنا ولا ينفعنا ..

ـ طيب اعطينى تليفونك على الأقل ..

ـ ليس الآن يا سوزان ..

ـ إذن كلِّمينى فى الليل .

ـ سأُكلِّمكِ الساعة التاسعة ، خذى التليفون فى غرفتك ، وخذى بالك من البيت . عم إمام ، إنه رجل طيب جداً .. حذار أن تسيئوا معاملته أو يجرح طارق إحساسه ... قومى أنت بالحساب معه واعطه كل ما كنت أعطيه ... أنت الآن مسئولة عن البيت .

ـ ما تخافيش يا ماما .. قلبى معك ..

ـ وقلبى معكم كلكم .

ووضعتْ السماعة ، واعتمدتْ رأسها بين كفيها ومرفقيها على المنضدة وغاصت فى أفكارها ، وعلى المنضدة تساقطت دموعها .

ودقَّ جرس التليفون الداخلى ، المتكلم هو زكى أفندى ، أو المستر زكى إنه يبلغها أن شركة الطيران اتصلت به وأبلغتْه أن وفد رجال الزراعة الأمريكيين يصل بعد غد . أفراده خمسة أساتذة ونساؤهم ، تقول :

ـ مستر زكى ، هات ملف هذا الوفد وتعالَ إلى غرفتى .. أو أقول لك :

انتظرنى أنتَ فى مكتبك . سأمر أولاً بقاعة الطعـــام والمطبخ ... قُـــل لى يا مستر زكى .. شغل الجناينى مش عاجبنى .. هل هو موجود ؟

ـ موجود يا افندم .

ـ إذن انتظرنى فى الحديقة .. دقيقتان وسأكون عندك .

* * *

[٦]

بعد نصف ساعة من التجول فى الحديقة والنظر فى النباتات والأشجار ، وبعد الصعود إلى أدوار الدار حيث كانت هناك نباتات فى كل مكان قررت نادية فَصْل البستانى ، وأمرت زكى بتصفية حسابه وأن يطلب من رئيس البستانيين فى السفارة بأن يختار لهم بستانياً جديداً ويرسله بعد غد على الأكثر . إلى ذلك الحين ستتولى نادية كل نباتات البيت بنفسها . واحتج البستانى ثم بكى واستعطف ، وتدخَّل بعض الفراشين ولكن قرار نادية نهائى . لاحظت أيضاً أن مدخل البيت ليس على ما ينبغى من النظافة ولافتة البيت عليها بعض التراب فأنذرت البوابين ، وقالت إنها ستنظر إلى البوابة بعد الظهر ، فإذا لاحظت أى شىء فصلَتْ البوابين ، وصعدت إلى مكتبها بعد أن طلبت من زكى أن يوافيها هناك مع ملف الوفد الأمريكى . وعششت فى البيت كله رعدة ، من الخدم والعمال فى المخازن أسفل الأرض إلى المسئولين عن الأدوار والغرف يسْرى فى نفوسهم خوف . فى لحظات قفز كل منهم إلى موقع عمله . وبدأت عملية شاملة : مراجعة وترتيب وتنظيف وتلميع .

ورتَّبتْ نادية كل شىء فيما يتعلق بالوفد مع المستر زكى : استقبال الوفد فى المطار وتخصيص غرفة لكل زوجين فى طابق واحد وسيارة ميكروباس للوفد أثناء إقامته ومندوب لمرافقة الوفد وتلبية طلبات أفراده ، والمندوب هو تادرس زكى ابن زكى أفندى فهو شاب ذكى نشيط يتقن اللغة الإنجليزية ، وهو مُهذَّب جداً .

وبعد العودة إلى مكتبه اتصل زكى بالمستر ادواردز وبلّغه كل شىء ، ويبتسم المستر ادواردز بعد أن يضع السماعة ويقول لصديق :

ـ ويقولون إن مصر بلد مُتخلِّف . مصر لا يمكن أن تكون متخلفة ، هناك بعض المصريين مُتخلِّفون كما فى الولايات المتحدة نفسها ، ولكن مصر لا تخلو أبداً من ناس يسايرون الزمن . نادية واحدة منهم وهنا كثيرون غيرها مثلها هؤلاء هم المقياس .

ويهُز صديقه الإنجليزى رأسه ويهز كتفيه ولا يقول شيئًا .

* * *

ماجد توفيق صادق فى مكتبه فى الوزارة . الزوار كثيرون والتليفون لا يسكت ، ومديرة مكتبه وهى سيدة محجبة سمينة تشغل نفسها بالتريكو وهى نادراً ما تعرف شيئاً ، لكى تحضر ملفاً تغيب نصف ساعة . كل خطاب تقدمه للإمضاء حافل بالخطأ فى كل شىء لأن كاتب الماكينة مُوزَّع عليهم من القوى العاملة ، وماجد وكيل وزارة مساعد فى وزارة الاقتصاد ، ولكن عمله نادراً ما يمس الاقتصاد ، كل ما يتصل بالاقتصاد فى يد السيد الوزير وبقية الموظفين لا يعرفون شيئاً . هناك وكيل أول وتسعة وكلاء مساعدون وماجد واحد منهم ، إنه وكيل الوزارة المساعد لشئون المؤتمرات ، والمؤتمرات كلها يحضرها الوزير وأسفاره لا تنتهى . فى كل سفرية تعلن الصحف أن مصر وقعت اتفاقاً توفَّر بمقتضاه كذا مليوناً من الدولارات ، والمشاريع ملفات والاتفاقات ملفات . والملفات فى الأرشيف يعلوها التراب ، ورصيد مصر من ديون

الدولارات يتعالى ويزداد ، ولكـــن لا بأس ، فسيادة الوزير سعيد ، وما دام سيادة الوزير سعيداً فلا شيء فى الدنيا يُهِمُّ ...

ويدخل على ماجد صديقه عز الدين قطامش . إنه أيضاً وكيل مساعد ، ولكنهم أخذوا منه اختصاصاته كلها فهو وكيل مساعد متنقل من غرفة لغرفة ، وليس عنده أى عمل ، ومكتبه لا يحمل ورقة واحدة .

ويقول عز الدين قطامش :

ـ قلت : ما دام ماجد لا يسأل فأسأل أنا ..

ـ أهلاً عِزّ .. جئت فى وقتك ..

ـ خيراً .. هل هناك أخبار من نادية .

ـ لا شيء وأنا سأجَنُّ ..

ـ إننى لا أفهم نادية هانم ، ولا مؤاخذة .. أظن أنها جنت .. مراتى لا تصدق ..

ـ وهل هذا معقول يا عز ... بعد ٢٣ سنة زواج تترك نادية زوجها وبيتها وأولادها ؟ ولماذا ؟ بسبب مناقشة عادية جداً معى ومع طارق .

ـ يا سلام ... وماذا فى المناقشة .. كم من مناقشة تجرى بينى وبين سميرة ...ومع ذلك فلا شيء يحدث ..

ـ وأين فى السيدات مثل سميرة زوجتك .. هادية وأميرة .. وكفاية إنها تحتملك .

ـ ولكننا مُتْعَبون جدًا مع الأولاد يا ماجد .. اشتريتُ لكل منهم سيارة .. وبرضه مش عاجبهم .. كل واحد منهم عنده ستريو فى غرفته

والآن يريدون فيديو كاسيت .. هل تعرف ما ثمنه ؟

ـ وأنت مـا يهمـك .. أنـت وكيل الوزارة للاتصـالات الخارجية ... وفرخـة فى كشـك عند السيـد الـوزيـر ... وشركات مصر كلهـا تحت إشارتك .. سيـارات وتليفزيـونات وسفريـات وسهرات .. وسرمحة على الآخر ودنيا ...

ـ لا واللـه يا ماجد ... أنـا مظلوم .. ألسنة الناس ، ربنـا يحمينا من ألسنة الناس وعيون الناس .

ـ ويحمى منك زوجتك ... المسكينة الصابرة .

ـ بـرضه لا زلت تعطـف على الزوجـات .. ؟ بعد الذى فعلتْـه معك نـادية لا زلت تأسى لحالهن ! تصـدق بـالله يـا ماجـد .. ليست فيهن واحدة تستحق العطف .

ويفكر ماجد طويلاً ثم يقول:

ـ لا يا عز .. يبدو أننى أخطأت فى حق نادية خطأ لم تستطع هى أن تغفره لى .. لقد كنت أحبها حب الجنون قبل أن أتزوجها .. حَفِيَتْ قدماى حتى وافقت على الزواج منى ..كنت أيـامها موظفـاً صغيراً ، وكانت هى تعمل فى سفارة السـويد قبل أن تنتقل إلى السفـارة الأمريكيـة ... كانت تملك سيـارة وكنت أتعلَّق بسيـارات الأتـوبيس ، ولكنهـا أحبتنى كما أحببتها ، ثم تـزوجنا . وفى اليوم الأول لميـلاد ابننا طـارق استقالت من عملهـا . كـان مـرتبهـا إذ ذاك ٢٥٠ جنيهـاً فى الشهـر ... هل تتصـور ٢٥٠جنيها شهرياً سنـة ١٩٧٠ ؟ وهى التى حصلت لنا على مسكننا فى جاردن سيتى التى ورثتـه عن أبيها ، وبعـد الزواج حملت هى العبء

كله .. عندما أذكر مـاذا كنت أفعل خلال السنوات الأولى لزواجنا ! كنت ألعب وأعربد معتمداً على أن نادية هناك .. كنت أسافر مع السيد الوزير فى المؤتمرات وأتغيب كما أشـاء .. وهى هنـاك فى البيت تـربى وتشقى وتقوم بكل شىء .. كانت شـابة صغيرة تحب زوجها وأولادها .. وكنت أنا شابـاً مصرياً ينسى دائماً أنه متزوج .. كل الـرجال فى مصر ينسَوْنَ أنهم متزوجـون . ويتذكرون زوجـاتهم عندما يعـودون إلى البيت ، أما خارج البيت فهم عُزَّاب .. نادية رَبَّتْ طارق وسوزان وأحمد .. ولكنها لم تُرَبّنى أنا ..

ويفتح عز الدين فمه دهَشاً ويقول :

ـ جُننْتَ يا ماجد ؟ منذ متى كانت الزوجات تُربّين الأزواج ؟

ـ هـذا ما ينبغى أن يحدث يا عز .. لقـد غضبت جداً عندما تـركتنا نـادية ومضتْ ، ولكن عنـدمـا بدأت أتحمل مكـانها شعرت فعـلاً أنها معذورة .. لقد أخطأتُ فى حقها .. أنا وطارق ..

ـ ولكنى ألاحظ أنك لا تكلف خاطرك عناء البحث عنها ..

ـ إننى أعرف أنها بخير .. سوزان تذكر لى ذلك ..

ـ وهل سوزان تعرف أين نادية هانم ؟

ـ ربما ولكنها لا تقـول شيئاً .. سوزان هى الوحيـدة من بيننا التى أحسَّتْ بآلام أمهـا ... أما أنـا فقد كنت منسـاقاً فى طريـق ابنى طارق .. وطارق أخطأ خطـأ بالغاً فى حق أمـه .. لقد تطـاول عليها بعـد كل الذى فعلتْه من أجله .. وإلى يومنا هذا لم يشعر بجسامة الخطأ الذى ارتكبه ..

إنه واحد من أبناء هذا الجيل الجديد الذى تعوَّد أن يأتيه كل شىء دون تعب .. كانت نادية تُربِّيه وكنت أنا أفسده .. لقد احتملت معنا كثيراً جداً ، وفى النهاية لم تَسْتطِعْ أن تحتمل أكثر ... تصور أننى اليوم أخاف أن أراها .. أخجل من نفسى .. لو أردت أن أجدها فأنا أعرف كيف أجدها ، ولكنى لا أجرؤ على مواجهتها ..

ـ كل هذا لا يبرر تركها لبيتها .. والآن أعترف بأننى السبب فى كل ما حدث من مشاكل ، ونسيت فضل نادية علىّ وعلى الأولاد ، وتساهلت مع الابن ضد أمه ولم أطبق شرع الله تعالى فى البيت ، وهذا هو الجزاء .

.. أنت لا تفهم هذا يا عز لأن زوجتك واحدة من القطيع .. أولادكم الستة أكلوها وهى مع ذلك سعيدة بذلك ... إنها لا تحبك ... إنها تعيش معك دون أن تحبك .. لا أنت عرفت حبها ولا هى عرفت حبك ... لهذا فأنت لا تفهم مأساتى مع نادية ...

ـ يبدو يا ماجد أن الحكاية أثَّرَتْ فى نفسك .

ـ نعم .. لقد هزَّتنى ... فجأة شعرْتُ وكأننى صحوْتُ من نوم عميق .. صحوْتُ وقد عاد إلىّ حب نادية ... الحب القديم الذى نسيته .. حبى لها أيام كنت شاباً صغيراً أعمل فى مكتب وزير .. هل تظن يا عز أنها يمكن أن تحبنى اليوم كما كانت تحبنى يوم تزوجنا .. هل يمكن أن تحبنى كما أحبها الآن ...

ـ وهل تظن يا ماجد أن هناك رجلاً فى الدنيا يعشق زوجته بعد الزواج ...

ربمـــا نحن لا نعرف ذلك فى مصر ... ولكنهم يعرفونه فى أوروبا ... هناك يعشق الـرجل زوجته قبل أن يتـزوجها ... وبعد الـزواج يعشقها أكثر ... لقد رأيت فيلماً أمريكياً مقتبساً من رواية لمؤلف أمريكى كبير لا أذكـر اســـمه يدور حـول هذا الموضـوع بالـذات ... رجل اختلف مع زوجتـه وانفصلـوا ... وبعد أن انفصلـوا شعـر أنـه لا يستطيع العيش بـدونها ... وكان عليـه أن يجرى من ورائها من جـديد ، ويخطبهـا من جديد ... وفى الستين تزوجا مرة أخرى زواج عاشقين ..

وظَلَّ عز الـدين يصف لصاحبه وهو لا يفهم . ثم رآه يعتمـد رأسه بين كفيه ويغيب عن الدنيا . وينظر إليه ذاهلاً . وفى صمت يخرج ويغلق الباب وراء ه .

* * *

تمت بحمد الله

قصص وروايات للمؤلف ملك الدار

١ ـ أهلاً وسهلاً .

٢ ـ مهر العروسة .

٣ ـ دموع باريس .

٤ ـ آدم يعود للجنة .

٥ ـ إدارة عموم الزير .

٦ ـ الوزارة الميمية الثانية (ورواية أخرى).

٧ ـ كلهم فى النار .

٨ ـ على أبواب جهنم (ورواية أخرى) .

٩ ـ الجارية والشاعر .

١٠ ـ غدًا تولد شمس أخرى .